

المنتخب من عصور الأدب

الجزء الاول

مؤلف

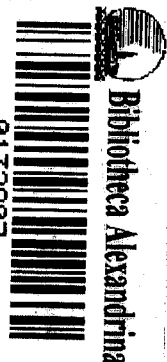
الدكتور محمد ميسير مرسى

الدكتور ذوالنون المصري ايجل

الدكتور جبار محمد عبيد

الدكتور سعد اسماعيل شلبي

الناشر
عالم الكتب
٢٨ عبدالغفار شبروت، القاهرة



١٣٦٢٥

٢٧-٧٥٧

المنتخب من عصور الأدب

١٢٩٢٥

الهيئة العامة للكتاب - المكتبة الاستشارية
رقم الأمانة: ٨٩٩-٧٥٩
رقم التسجيل: ١٦٥٧٥

الجزء الأول

تأليف

الدكتور محمد منير مرسي

الدكتور زوايد النون المصري

الدكتور جبار محمد عيد

الدكتور سعد اسماعيل شلبي

الناشر عالم الكتب

٢٨ شارع عبدالخالق بمصر - بالقاهرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة الكتاب

يتناول هذا الكتاب مجموعة من النصوص الأدبية المختارة من النثر والشعر العربي عبر العصور المختلفة : من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث . وقد استهدف مؤلفو الكتاب حسن اختيار النصوص حتى تكون معبرة عن روح العصر الذي تمثله من ناحية وتساعد القارئ أو الدارس على تذوق جمالها من ناحية أخرى . والكتاب يتكون من جزئين : يتناول الجزء الأول العصر القديم : أي العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والعباسي الأول . ويتناول الجزء الثاني منه العصرين : الوسيط والحديث . وقد سار منهج الكتاب على أن يقدم لكل عصر بكلمة توضح أهم ملامحه وخصائصه الأدبية يعقبها نماذج من النثر ثم نماذج من الشعر .

وفي معالجة كل نص من الشعر أو النثر قدمنا له تمهيداً للنص ومؤلفه ثم عرضنا النص نفسه ، ثم التعليق عليه وشرحه وتفسيره . وفي قلة من النصوص اكتفينا بشرح مفردات النص الغامضة وألفاظه الصعبة : وترك التعليق على النص لإتاحة الفرصة للقارئ أو الدارس أن يتدرب على فهم النص وتحليله والتعليق عليه .

ويهم هذا الكتاب بالدرجة الأولى دارسي الأدب العربي في المراحل العالية والمتقدمة ويهم أيضاً القائمين على تدريس الأدب العربي وكل من له اهتمام بالأدب العربي : قديمه وحديثه . ونرجو أن يجد فيه كل هؤلاء ما قصدنا إليه من فائدة .

وعلى الله قصد السبيل .

العصر الجاهلي

العصر الجاهلي

عاش العرب في جزيرتهم قبل الإسلام محصورين أو كالمحصورين ، لا يكادون يتصلون بغيرهم ، ولا يكاد غيرهم يتصل بهم ، وإن حدث هذا الاتصال ففي أضيق الحدود ، وكان العرب الجاهليون يتكلمون لهجة سامية ، تطورت بتطورهم ، وأسببت إليهم وسميت اللغة العربية ، وقد مضى على هذه اللغة التي تتحدث بها الآن نحو خمسة عشر قرناً. وإذن فهي من أطول اللغات عمراً. نشأت بجانبها لغات ثم تطورت إلى لغات أخرى أو ماتت ، بينما لغتنا العربية لا تزال كما نطق بها أهلها ، فهي تتطور في الحقيقة ، ولكنه تطور داخلي لا يمس إطارها الخارجي ، بخلاف المجموعات الأخرى من اللغات الآرية — على سبيل المثال — فتطورها خارجي يجعلها بمرور الزمن تنفتق وتتشعب إلى لهجات جديدة سرعان ما تكون كل منها لغة جديدة تستقل عن اللغة الأم مثل اللغة اللاتينية ، فقد انشعبت إلى لهجات ، فلغات . مثل الفرنسية والأسبانية والإيطالية .

والسبب الحافظ للغة العربية دون انشعاب هو نزول القرآن الكريم بها. والقرآن باق على الدهر . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

واللغة العربية تمتاز باطراد الاشتقاق ، وكثرة المترادفات ، وتنوع المجاز والكناية ، واختلاف طرق الوضع والدلالة. وما يدل على غزارة مادتها أن الشاعر العربي يستطيع أن ينظم قصيدة على قافية واحدة مهما طالت القصيدة وزادت أبياتها على المائة بل والمائتين ...

وفي مقامات الحريري — مثلاً — نجد في المقامتين : السينية والسينية التزاماً في كل كلمة من كلمات الأولى أن يكون بها حرف السين وفي الثانية حرق السين . بل انه في رسالته الرقطاء جعل كل كلمة من كلماتها مركبة من حرف معجم فأخر مهمل وهكذا شعراً ونثراً .

ومؤرخو التاريخ الأدبي يقسمون الأدب العربي إلى عدة أعصر ، تبدأ بالعصر الجاهلي الذي لا يزيد عمر أقدم المروى من موضوعاته عن مائتي عام قبل ظهور الاسلام : وهذا العصر هو الذي نقدم له الآن .

ومهما يكن من شيء فالأدب العربي المروى عن العصر الجاهلي نوعان :
الشعر، والنثر الفني. وقد قيل كلام كثير حول أيهما أسبق في الوجود: الشعر، أم
النثر. وانتهى الباحثون في حملتهم إلى سبق الشعر. وقد كان العرب لتبديهم، وشطف
حياتهم، وعدم تحضرهم ينظمون شعرهم من غير تكلف في الأسلوب، ولا تعمق في
المعنى، ولا مبالغة في الخيال، مع توخي الحقيقة وعدم النزوع إلى الاستعمال المجازي
إلا ما كان قريباً من الحقيقة، والبعد عن المحسنات البديعية إلا ما جاء عفواً.

وكانت أغراض الشعر لا تخرج عن تصوير مجتمعهم البدوي: كاللحل والترحال،
والنزاع على مواطن المياه، والأخذ بالثأر، والتفاخر بالشجاعة والكرم، ووصف
بيئتهم المسكانية من وهاد وجبال وجمال وشياه وخيول....

أما النثر الفني، فتمثل في الحكمة والأمثال، والخطابة، وسجع الكهان، وتعتبر
الأمثال أدل على تصوير الحياة الاجتماعية من الألوان الأدبية الأخرى، لأنها نابعة
من جميع طبقات الشعب، لا من بيئة خاصة بعينها كالشعر والخطابة مثلاً.

أما الخطابة فكانوا يستخدمونها في الحث على الانتقام، أو التنفير من الحرب،
أو في المنافرات والمغامرات ونصرة الجار، أو في السفارة لدى رؤساء القبائل
ومن في حكمهم. وكلما كثر أعداد القبيلة زاد خطابوها، كقبيلة إياد مثلاً، فكانت
مجاورة للدولة الفارسية في شمال العراق، ولهذا كانت من أكثر القبائل خطباء، مثل
قس بن ساعدة الإيادي، وكان للخطيب منزلة مرموقة في قومه تكاد تصل إلى منزلة
الشاعر.

يعتبر الشعر أعظم الأنواع الأدبية في العصر الجاهلي، بل لعله أن يكون النوع
الوحيد الذي وصلتنا منه مجموعات غير قليلة في شتى الأغراض ويقول مؤرخو الأدب
« إن الشعر ديوان العرب ».

وقد كان في أول أمره مقطوعات صغيرة في أغراض بسيطة، ثم نما وأخذ يتطور
في الصورة والمضمون إلى أن صار قصائد تدور حول أغراض شتى، كالممدح والبهجاء
والرثاء والفخر والاعتذار والذم والوصف الطبيعية كالإبل والخيول والظباء
والسحاب والبرق والليل والوقائع العسكرية، ونحو ذلك بما يشيع في الطبيعة

الصحراوية في هذا العصر ، ولم تبلغ النهضة الشعرية ذروتها إلا قبيل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وكانت القبيلة إذا نبغ شاعر هنأتها القبائل الأخرى لأنه المخامى عنها والمتحدث بمفاخرها ، ولعله أن يكون مثل الصحف الحربية التي في عصرنا الحاضر .

ومن شعراء الجاهلية المشهورين : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كشموم ، وزهير بن أبي سلمى ، والنايعة ، وعنترة ، وغيرهم كثير .

وقد عرف من الشعر الجاهلي بضع قصائد طويلة نالت شهرة فوق العادة . وهي القصائد المعروفة بالمعلقات . وقد اختلف الباحثون في عددها ، فتميل بأنها سبع ، أو ثمان ، أو عشر . واختلفوا كذلك في سبب تسميتها ، كلام كثير لا محل له الآن .

والشيء المهم أن الشعر الجاهلي وصل إلينا عن طريق رواية جمعه خلال القرن الثاني الهجري ، واشتهر كل راو بمجموعة تنسب إليه ، منهم الرواة الثبوت . ومنهم الرواة المتهمون . فن الرواة الموثوق بروايتهم :

أبو عمرو بن العلاء : المتوفى سنة ١٥٩ هـ . وهو أحد القراء ، ومن رجال النحو واللغة .

المفضل الضبي : المتوفى سنة ١٧٠ هـ وله مجموع من الشعر رواه فنسب إليه وهو المعروف بالمفضليات .

الأصمعي : المتوفى سنة ٢١٥ هـ . وله مجموع رواه فنسب إليه وهو الأصمعيات .
أما الرواة المشكوك في روايتهم فمنهم :

حماد الراوية : المتوفى سنة ١٦٤ هـ . وهو من الموالى . كان كثير الحفظ للشعر لدرجة ملفنة للنظر . قيل كان يحفظ مائة قصيدة طويلة من الشعر الجاهلي على كل حرف من حروف المعجم ، ومن هنا لقب بالراوية .

خلف الأحمر : المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وهو من الموالى . قيل بأنه وضع كثيراً من القصائد ونسبها زورا إلى بعض شعراء الجاهلية ، ومن تلك القصائد لامية الشنفرى ، ولامية الشاعر الصعلوك : تأبط شرا .

ونستطيع أن نجمل المجموعات المروية من الشعر الجاهلي فيما يلي :

(١) المعلقات : رواها حماد في مجموع خاص . واعتبرها سبعا . نوهي كذلك سبع عند المفضل الضبي ، بعد أن أبعده اثنتين من رواية حماد ، وأضاف اثنتين بدلتهما . وقد شرحت هذه المعلقة ، أكثر من مرة ، شرحها الزوزني المتوفى سنة ٨٦٦ هـ . والبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ . بعد أن جعلها عشراً .

(٢) المنقليات : نسبة إلى جامعها المفضل الضبي ، وقد شرحها ابن الأنباري ، ونشرها المستشرق ليال ، وهي ١٢٦ قصيدة أضيف إليها أربع وجدت في بعض النسخ ، وقد نظمها ٦٧ شاعراً ، منهم ٤٧ جاهليون .

(٣) الأصميات : نسبة إلى راويها الأصمعي . وهي قصائد ومقطوعات عددها ٩٢ نظمها ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهلياً .

وقد نشرها المستشرق آلورد Alwardt سنة ١٩٠٢

(٤) جمهرة أشعار العرب : لابن زيد القرشي .

(٥) مختارات ابن الشجري : لشعراء جاهلين وإسلاميين .

أضف إلى هذا بعض المختارات كحماسة أبي تمام . وحماسة الخالدين المسماة الأشباة والنظائر ، وكذلك الدواوين المفردة لبعض الشعراء الجاهليين ، ودواوين القبائل كأشعار الهزليين .

والمهم أن الكثير من دواوين الشعراء ودواوين القبائل تعتبر مفقودة ولكننا نجد نماذج منها في كتاب الأغانى حين يترجم لهؤلاء الشعراء .

وما دمتنا بصدد الشعر الجاهلي فمنناك قضية ثارت حول هذا الشعر .

وهي قضية تدور حول عدم نسبة هذا الشعر أو بعضه على الأقل إلى أصحابه الجاهليين ، وهي قضية لها جذور قديمة . فقد ذكر ابن سلام الجعفي المتوفى في القرن الثالث الهجري في كتابه : « طبقات فحول الشعراء » ، أن بعض الرواة كانوا يرددون شعراً منتحلاً وينسبونه إلى شعراء جاهليين لم يقوله . ويعتبر ابن سلام أول من أثار قضية الانتحال هذه . وإذن فهي فكرة قديمة . وما يجعلنا نهتم بها أن ابن سلام قريب

عهد برواة الشعر الجاهلي ، فلم يكن يفصل بينه وبينهم إلا بعض عشرات من السنين .
وفي العصر الحديث أخذ بعض المستشرقين يثيرون هذه المسألة مثل آلورد Alwardt
عندما نشر مجموعة الأصمعيات ، فشك في الشعر الجاهلي عامة ، ولم يجد فيه ما يوثقه
الإلا قلة من القصائد عينا .

ثم سار على هذا النحو غيره من المستشرقين المتوفرين على دراسة الشعر العربي ،
أمثال : مور ، وبروكلان .

أما من شك في نسبة الشعر الجاهلي كله إلى أصحابه فهو المستشرق اليهودي الإنجليزي
دافيد مارجوليوت David Margoliouth في مقالة له بمجلة الجمعية الملكية
الآسيوية عدد يولييه سنة ١٩٢٥ تحت العنوان الآتي : « متابع الشعر الجاهلي ،
The Origins of Arabic Poetry »

وقد وردت هذه المقالة مترجمة في كتاب « مصادر الشعر الجاهلي » للدكتور ناصر
الدين الأسد .

ولم يكدر دارسو الأدب العربي عامة والجاهلي خاصة يستمعون إلى هذا الاتهام
الجديد نحو التشكيك الكامل في هذا الشعر حتى هبوا يردون على مارجوليوت .
ومنهم على سبيل المثال المستشرق لايل في مقدمته لمجموع « المفضليات » بل إنه
خاشنه حين رد عليه ، ومن ردوا على مارجوليوت وناقشه المستشرق الفرنسي
بلاشير في كتابه : « تاريخ الأدب العربي ، الجزء الأول .

أما أستاذنا المرحوم الدكتور طه حسين فقد أفاض في كتابه « في الشعر الجاهلي »
في الحديث حول هذه القضية ، مؤيدا رأى القائلين بأن الشعر الجاهلي منحول . فلما
صدر كتاب أستاذنا طه حسين وضع كتابا آخر بعنوان « في الأدب الجاهلي » وعرض
لقضية الاتهام في إسهاب وبسط .

وإذن فارجوليوت وطه حسين وغيرهما لم يأتيا بجديد حين رفضا الشعر الجاهلي
ورفضا نسبه إلى أصحابه . فليس ذلك من ابتكارهما كما شاع في بعض الأوساط ،
وإنما سبقا إليه كما ترى .

وسيجد القارىء في السطور التالية بعض التماذج المختارة لنصوص من الشعر
والشعر في هذا العصر .

طريق السيادة والشرف

النص

تمهيد: ذو الأصبع العدواني هو جرثان بن الحارث نائر وشاعر من العصر الجاهلي ينتمي إلى قبيلة عدوان المضربة وسمى ذو الأصبع ، لوجود أصبع زائدة برجله . وكان من حكماء العرب . ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه وكان يسمى وأسنداً ، ببعض الوصايا التي تنفعه في حياته قال :

النص

يَا بُنَيَّ ! إِنْ أَبَاكَ قَدْ قَنِي وَهُوَ حَيٌّ وَعَاشٍ حَتَّى سَمِمَ الْعَيْشُ
وَإِنِّي مُوصِيكَ بِمَا إِنْ حَفِظْتَهُ بَلَغْتَ فِي قَوْمِكَ مَا بَلَغْتَهُ فَاحْفَظْ
عَنِ الْإِنِّ جَانِبَكَ لِقَوْمِكَ يَجْبُوكُ وَتَوَاضَعْ لَهُمْ يَرْفَعُوكَ ، وَأَبْسِطْ
لَهُمْ وَجْهَكَ يَطِيعُوكَ وَلَا تَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ يُسَوِّدُوكَ وَأَكْرَمِ
صَغَارِمَ كَمَا تَكْرَمُ كِبَارِمَ يَكْرَمُكَ كِبَارِمٌ وَيَكْبُرُ عَلَى مَوَدَّتِكَ صَغَارِمٌ
وَاسْمَحْ بِعَالِكَ وَاحْمِ حَرِيمَكَ وَأَعَزِّزْ جَارَكَ وَأَعِنِ مِنَ اسْتِمَاعِ بَيْتِكَ
وَأَكْرِمِ صَنِيفَكَ وَأَسْرِعِ النِّهْضَةَ فِي الصَّرِيحِ ^(١) فَإِنَّ لَكَ أَجْلاً
لَا يَعْدُوكَ ^(٢) وَصُنْ وَجْهَكَ عَنْ سَأَلَةِ أَحَدٍ شَيْئاً فَبِذَلِكَ يَمُوتُ وَوَدُّدُكَ ^(٣) .

(١) أي أسرع للنهضة من استغيت بك .

(٢) لا يتخطاك .

(٣) أي شرفك وكرامتك .

التعليق

تمثل هذه الوصايا خلاصة التجارب والخبرة الطويلة التي عرفها الأب من تجارب حياته وقد تضمنت عدة مبادئ رئيسية هامة أوصى بها الأب ابنه نوجزها فيما يلي :

- معاملة قومه برفق ليحبوه .
- تواضعه معهم حتى يرفعوا من قدره .
- مقابلتهم بوجه منشرح باسم .
- إشراكهم في ماله ونعمه .
- إكرامه الكبير منهم والصغير على السواء .
- التحلي بالصفات الكريمة التي تؤهلهم للسيادة من كرم وإيمان ورعاية ونجدة للمستغيث وعدم إراقة الدماء والتعفف عن سؤال الناس .

في الفخر

للمرقش الأكبر

تمهيد: المرقش الأكبر شاعر جاهلي من بكر توفي سنة ٥٢٣ م وقد عرف بالفروسيّة : ومن المعروف أن للبيئة الطبيعية في العصر الجاهلي تأثيرها على حياة العربي ، جعلته يعتز ببعض المآثر والقيم والمثل التي تباهى بها العرب واحتلت من حياتهم مكانة كريمة . والنص التالي يكشف عن بعض هذه المآثر التي يفتخر بها الشاعر .

النص

- ١ - إن تُبْتَدِرْ غَايَةً يَوْمَ الْمَكْرَمَةِ تَلَقَّ السَّوَابِقَ مِنَّا وَالْمَصَلِيْنَ
٢ - وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا إِلَّا ابْتَلَيْنَا غُلَامًا سَيِّدًا فِينَا
٣ - إِنَّا لَأُخِصُّ يَوْمَ الرُّوْعِ أَنْفُسَنَا
٤ - شَعْتُ مَفَارِقَنَا تَغْلِي مَرَاجِلَنَا
٥ - الْمُطْعِمُونَ إِذَا هَبَّتْ شَامِيَةٌ
٦ - إِنِّي لِمِنْ مَعْشَرٍ أَقْنَى أَوْلَادِهِمْ
لَوْ لَسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِينَا
نَأْمُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا
وَحَيْرٌ نَادٍ رَأَى النَّاسُ نَادِينَا
قِيلُ الْكَمَاةِ إِلَّا أَيْنَ الْمُحَامُونَا

(١) السوابق جمع سابق وهو أول الخيل في السباق - المصلين : جمع وصل وهو الجواد الذي يلي السابق .

(٢) ابتلينا : اختبرنا .

(٣) نسام بها : يساومنا أحد عليها . أغلينا : صارت غالية .

(٤) شعنت : جمع أشعث وهو المغبر الشعر وهو دليل على كثرة الحروب

مراجلنا جمع مرجل وهو القدر . نأمو : نداوى .

(٥) شامية : رياح شمالية تهب من ناحية الشام .

(٦) الكماة : جمع كمي وهو الفارس الذي يلبس عدة الحرب .

- ٧ - لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَوْا
مَنْ فَارِسٌ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَهْتُمُونَا
٨ - إِذَا الْكَمَاءُ تَنَحَّوْا أَنْ يُصِيبَهُمْ
حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا
٩ - وَلَا تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ
مَعَ الْبُسْكَاءِ عَلَى مَنْ مَاتَ يَبْكُونَا
١٠ - وَتَرَكِبُ الْكُرْهَ أَخِيَانَا وَيُفْرِجُهُ

(٨) الظُّبَاتُ : جمع ظبة وهو حد السيف .
(١٠) الحِفاظُ : المحافظة .

في المدح

للسابغة الذبياني

تمهيد: السابغة الذبياني هو أبو أمامة زياد بن معاوية من أشرف قبيلة ذبيان المضربة وقد لقب بالسابغة لنبوغه في الشعر فجأة وهو كبير وصار أحد فحول شعراء الجاهلية وقد تكسب بالشعر في الجاهلية ولكنه آثر مدح ملوك المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام . وكان من أوائل من مدحهم النعمان بن المنذر أحد ملوك المناذرة فقر به إليه ولكنه انقلب عليه بعد ذلك عندما وشى به وهم بقتله ففر السابغة إلى ملوك الغساسنة بالشام فمدحهم ولم يطب مقامه بالشام فعاد يستعطف النعمان بقصائد رائعة كانت سبباً في عفو عنه وقد عمر السابغة طويلاً ومات قبل الإسلام .

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي نوردتها فيما يلي، مدح فيها عمر بن الحارث الأصغر من ملوك بني غسان بالشام .

النص

- ١ - كليلني لهم يا أميمة ناصبٍ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب
- ٢ - تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجوم بأيب
- ٣ - وصذر أراح الليل عازبهم تضاعف فيه الحزن من كل جانب
- ٤ - على لعمري نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

(١) كليلني : أتركيته . أميمة : اسم امرأة وهو تصغير أم . ناصب من النصب وهو التعب . بطيء الكواكب : دلالة على طول الليل لكثرة الهموم .
(٢) الذي يرعى النجوم هو الصبح والمقصود هنا تطاول الليل بلا آخر .
(٣) أراح من الرواح وهو الرجوع . وعازب : غائب أي أن صدري أثقله ما أعاده الليل من غائب هم وحزنه .
(٤) في هذا البيت يمدح عمرًا بأنه له عليه نعمة بعد نعمة سابقة لوالده وهي ليست بذات عقارب أي بدون ما يكدرها من من وأذى .

- ٥ - حلفت يمينا غير ذى مثنوية ولا علم إلا حسن ظن بصاحب
٦ - لئن كان للقبرين قبر يجلق وقبر بصيداء الذى عند حارب
٧ - وللحارث الجفنى سيّد قومه ليتمسن بالجيش دار الحارب
٨ - وثقت له بالنصر إذ قيل قدغزت كتاب من غسان غير أشائب
٩ - بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر أولئك قوم بأشهم غير كاذب
١٠ - إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصاب طير تهتدى بعصاب
١١ - يصاحبهم حتى يفرن مزارهم من الضاريات بالدماء الدوارب
١٢ - تراهن خلف القوم خزرأيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب

(٥) أى حلفت يمينا ثم أستثنى منها ولا علم لى بصحة هذه اليمين إلا حسن ظنى بصاحبى الذى أمدحه .

(٦ ، ٧) أى لئن كان المدوح عمرو ينتسب لصاحبى هذين القبرين وهو الواقع . جلق : اسم دشنق - صيدا من الشمام الساحلية وقريبة منها . حارب : اسم رجل أو بلد . وصاحبيا القبرين هما الأب والجد الأول والحارث الجفنى : هو الجد الثالث لأن المدوح هو عمرو بن يزيد بن الحارث الجفنى . والمعنى لئن كان هذا المدوح ابن هؤلاء الملوك العظام (وهو يعلم أنه ابنهم) ليبتلغن ميلغهم وليطلبن بجيشه أعداءه فيغزوهم فى عقر دارهم كما كان أبائهم وأجداده يفعلون .

(٨) أشائب جمع أشابه وهم الأخلاط أى أن هذه الكتابات كلها من صناب غسان .

(٩) أى أن هذه القبائل هم بنو عمه الأذنون الأقربون .

(١٠ ، ١١) أى إذا غزوا حلفت عليهم جماعات النسور والعقبان لتأكل ممن يقتلونها . والدوارب : المتدربات .

(١٢) خزر : أى ضيقة العيون محددة النظر . أى أنها عند اشتداد القتال تقع على أعلى الأرض والهضاب كأنها فى ريشها ووقوفها تترقب القتل جالسة جلوس الشيوخ باكسية المرانب وهى جمع مرنابتى وهو الثوب الميطن بفراء الأرنب .

- ١٣- جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما اتقى الجمعان أول غالب
١٤- لهم عليهم عادة قد عرفتها إذا عرض الخطى فوق الكواكب
١٥- على عارفات للطعان عوابس بهن كلوم بين دام وجالب
١٦- إذا استنزوا عنهم للطعن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب
١٧- فهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم يبض رفاق المضارب
١٨- يطير قضاضا بينها كل قونس ويتبعها منهم قرأش الحواجب
١٩- ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(١٣ ، ١٤) جوانح : مائلات للوقوع • القنا الخطى : الرمح المنسوب الى الخط وهي بلد بالبحرين • والكواكب : جمع كائبة وهي من جسم الفرس ما تحت الكاهل الى الظهر والمعنى أن الطير اعتادت أنه اذا عرضت الرماح على الكواكب كان ذلك لرزق يساق اليها •

(١٥) عارفات : خيول صابرات لطعان الأعداء • الجالب : الجرح الذي يبس أعلاه •

(١٦) أرقلوا : أسرعوا • الجمل المصعب أى الجمل الفحل • والمعنى أنه اذا نزل القوم عن الخيول لضيق المكان ووقع الالتحام أسرعوا الى الموت على أرجلهم • كانتهم الجمال المصاعب •

(١٧) يتساقون : يسقى بعضهم بعضا •

(١٨) القضاض : من انقض وتفرق - القونس : أعلى البيضة التي توضع على الرأس من الفولاذ • قرأش الحواجب : أى قرأش الجمجمة وهي العظام الرقاق التي تكون أسفل الجمجمة فوق الحنك والمعنى أن قوائس الفرسان تطير قضاضا بين هذه السيوف ويتبعها في الطيران قرأش جماجم الفرسان •

(١٩) فلول : جمع فل وهو الثلمة في حد السيف • والمعنى أن سيوفهم أصبحت غير حادة من كثرة ضرب الأعداء •

- ٢٠- تُورثن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جربن كل التجارب
٢١- تقد السلوق المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الجباحب
٢٢- بضرب يُزيل الهام عن سكناته وطمن كإزراع المخاض الضوارب
٢٣- لهم شيمة لم يعطاها الله غيرهم من الجود والأحلام غير عواذب
٢٤- محلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
٢٥- رفاق التعامل طيب حُجراتهم يحيون بالريحان يوم السباب
٢٦- تحييمهم ييض الولائد بينهم وأكسية الإضريح فوق المشاحب

(٢٠) أى أن هذه السيوف ورثت عن الآباء الذين حضروا يوم حليلة عندما انتصرت فيه الفساسنة على المناذرة وحليمة هى ابنة الخازن بن أبى شمر جد المدوح الثالث وكانت ضمحت بالطيب عسكر أبيها عند رجوعهم منتصرين .

(٢١) السلوقى : الدرع السلوقى الذى ينسب الى بلدة سلوقية بالشام - الصفاح : الحجارة العراض . نار الجباحب : شعاع يضىء بالليل والمعنى أن هذه السيوف تقطع الدرع المضاعفة النسيج وإذا ضرب بها الحجارة قدحت شرارا يتطاير كأنه نار الجباحب .

(٢٢) الإيزاغ : دفع أناقة بولها . المخاض : انقواق الحوامل . الضوارب التى تضرب بأرجلها والمعنى أنه إذا ضرب بها أزالته الهام عن الاعتناق وإذا طعن بها خرج الدم فى أثرها كاندفاع بول النوق والحوامل .

(٢٣) الأحلام : العقول . العواذب : البعيدة أو الغائبة أى أنهم أجواد حاضرو العقول .

(٢٤) أى مسكنهم بيت المقدس والأرض المقدسة أى أنهم متدينون .

(٢٥) رفاق التعامل كناية عن قلة مشيهم لأنهم ملوك بل يركبون الخيل . الحجزات : مجمع شد الأزار على الوسط من الجسم والمقصود عفتهم . السباب : يوم الشعانين وهو يوم عيد عند النصارى وكان المدوح نصرانيا .

(٢٦) الولائد : الاماء . الإضريح : الحز الأحمر اللون . أى أنهم منوك أهل نعمة خدمهم الولائد البيض وثيابهم ثمينة .

- ٢٧- يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردن خضر المناكب
٢٨- ولا يحسبون الخير لا ثمر بعده ولا يحسبون الشر ضربه لازب
٢٩- حبوت بها غسان إذ كنت لاحقاً بقوى وإذ أغيت على مذاهي

(٢٧) الأردن جمع ردن وهو مقدم كم القميص أى أنهم يصونون أجسادهم العريقة فى التعميم بشباب بيض الأردن خضر المناكب وكان هذا الذى هو لبس الملوك .

(٢٨) أى أنهم عرفوا تصرف الزمان وتقلبه فلا يبطرون عند الخير ولا يقنطون عند الشر .

(٢٩) أى حبوت بتصاندى غسان عندما كنت لاحقاً بقوى غير خائف من أحد وكان قد هرب من النعمان .

من معلقة عمرو بن كلثوم

تمهيد: الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي، سيد تغلب، وفارسها، وأحد فتاك العرب، وشعرائهم، اشتهر بالقصيدة التي معنا، وأجاد فيها الفخر، وأمه: وليلى بنت المهلب، أخت كليب القتيل الذي من أجله اشتعلت حرب البسوس. قال هذه المعلقة في ملاحاة وقعت بينه وبين الحارث بن حازمة الشكري شاعر بكر... مات قبل الإسلام بنحو نصف قرن، وكانت له شهرة بالخطابة لا تقل عن شهرته بالشعر.

مناسبة القصيدة: وقعت حروب كثيرة بين قبيلتي: بكر، و تغلب، أطلقوا عليها حرب «البسوس» وهي من أيام العرب المشهورة. وقد بذلت محاولات للصلح بين المتحاربين منها واحدة على يد عمرو بن هند، وكانت كل قبيلة تقدم شعراءها لتحدث باسمها والتغنى بأجادها وقد أخذ عمرو من قبيلة تغلب رهائن، نزلوا على ماء لقوم من بكر، فنحاهم البكريون، وحالوا بينهم وبين الماء حتى ماتوا عطاشاً، فطالب التغلبيون بدييات موتاهم، واختصموا أمام عمرو بن هند. فقال عمرو بن كلثوم هذه القصيدة.

النص

- ١ - أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيناً
- ٢ - بآنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمرأ قد رويناً
- ٣ - وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديناً

(١) أبو هند: عمرو بن هند ملك خيرة، ابن المنذر بن ماء السماء: أنظرنا: أميلنا.
(٢) ندين: نخضع ونذل.

- ٤ - وسيد معشر قد توجه
بتاج الملك يحى
٥ - تركنا الخيل عاكفة عليه
مقلدة أعنتها
٦ - متى نقل إلى قوم رحانا
يكونوا في اللقاء لم
٧ - يكون نفالها شرقى نجد
ولهورها قضاة
٨ - نزلتم منزل الأضياف منا
فأعجلنا القرى أن
٩ - قرينا كم فعجلنا قراكم
قبيل الشيخ مرداة
١٠ - نعم أناسنا ونيف عنهم
ونحمل عنهم ما
١١ - نطعن ما تراخى الناس عنا
ونضرب بالسيوف إذا
١٢ - نشق بها رؤوس القوم شقا
ونخلها الرقاب
١٣ - كأن جاجم الأبطال فيها
وسوق الأماز
١٤ - وأن الضغن بعد الضغن يبدو
عليك ويخرج الداء
١٥ - ورثنا المجد قد علمت معد
نطعن دونه حتى

- (٤) المحجرون : اللاجئون الى من يحميهم .
(٥) صفونا : قائمة جمع مفردة صافنة .
(٧) الثقال : جلدة توضع تحت الرحى يسقط عليها الطحين ،
القيضة من الحب تلقى في الرحى .
(٩) القرى : الضيافة . المرداة : الصخرة التي تكسر بها الحجار
(١٠) نعم أناسنا : يقصد : يعمهم بالخير .
(١١) نطعن : بالرمح .
(١٣) الأماز : جمع أمعز وهي الأرض الصلبة الكثيرة الحمى ، أو
الأحمال جمع وسق .
(١٥) معد : ابن عدنان واليه ينسب الشاعر ، حتى بين : حتى
عنا .

- ١٦- ونحن إذا عماد الحى خرت على الأحفاض تمنع من يلينا
١٧- نجد رءوسهم فى غير برّ فما يدرون ماذا يتقونا
١٨- كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدى لاعينا
١٩- كأن ثيابنا منا ومنهم خضين بأرجوان أو طلينا
٢٠- إذا ما عى بالإنساف حى من الهول المشبه أن يكونا
٢١- نصبنا مثل رهوة ذات حدّ محافظة وكنا السابقينا
٢٢- بشبان يرون القتل مجداً وشبب فى الحروب مجرينا
٢٣- حدياً الناس كلهم جميعاً مقارعةً بنهم عن بنينا

التعليق

يتخذ الشاعر فى هذا الجزء من المعلقة - الفخر بالشجاعة والقدرة على القتال وانزال الهزائم بالأعداء، فكرة أساسية، ويمر فى سبيل تأكيدها بعدة معان أو محاور:
المحور الأول: يخاطب فيه الحكم بين القبيلتين، ويسمع قبيلة بكر، مهاجرا وقبيلته وتغلب، معتزاً.. ليقدر فى هذا المحور أنه وقبيلته يحالف النصر دائماً، وأنهم أنزلوا الهزائم بأمنع الرجال وأشجعهم.

- (١٦) الأحفاض: أمتعة البيت جمع حفص .
(١٧) ماذا يتقون: أى بماذا يتقوننا أبالسيوف أم بالريح ؟
(١٨) مخاريق: مناديل تلف ويضرب بها .
(١٩) الأرجوان: صبغ أحمر، الثياب: يريد بها: العذبات التى تربط بأطراف الرماح .
(٢٠:٢١) عى بالأمر: تحير، الإنساف: التقدم بالخيال إلى المعركة، رهوة: اسم جبل، حد: شوكة .
(٢٣) حدياً: اسم من انتحدى . وهى مصغر حدوى .

ولا يختم هذا المحور إلا بعد أن يبلغ بالعرف ذروته ، طولا وعرضا أو عمقا
واتساعاً .. أما العمق والعرف فيمثلته :

مقى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحيننا

وينضم إلى هذا العرف ترامي الميدان واتساعه ويمثله قوله :

يكون ثفاطها شرقي نجد ولهوها قضاة أجمعينا

المحور الثاني : وفيه النهكم والسخرية بقبيلة بكر على مسمع منها، فهم أضياف
وتغلب خير من يكرم الأضياف ، ولكن القرى لن يكون طعاماً أو شراباً ، بل
سيكون مرداة طحونا ، وهكذا يرى الشاعر أعداءه بصخرة طاحنة ، ثم يهاجم ،
طعنًا بالرمح ، وضرباً بالسيف ، يشق الرءوس ويحز الرقاب ، فتتطاير الجماجم ،
وتتناثر الأحبال .

ويختم هذا المحور ببيان روافد هذه الممارك ، أو بعبارة أدق ، ما يؤجج أوارها ،
ويجعله في شيتين : أولها يتعلق بالأعداء وهو الحقد والضغن ، والآخر يتعلق بقومه
ألا وهو المجد الأصيل .. يعبر عن الأول بقوله :

وأن الضغن بعد الضغن يبدو عليك ويخرج الداء الدفيننا

ويفصح عن الثاني بقوله :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبيننا

المحور الثالث : وفي شئ من التسلسل ينتقل الشاعر المفاخر .. إلى المحور الثالث
فيجعله عاما ، يقرر فيه مبادئ ، وصفات لازمة ويفصح عن مزايا قبيلته بين أحياء
العرب :

فإذا خرت العباد ، وعجزت الأحياء عن التحرك إلى الممارك ، فإنهم يمنعون
الصديق ، ويجزون رأس العدو ، ويشعلون مثل جبل رهوة ، ويتوافد شبابهم متحدين
الناس جميعا بقوتهم ، ويساندهم الشيوخ مؤازرين الفتيان بحكمتهم وتجاربهم .
وهكذا يدير الشاعر قصيدته هذه حول تلك العناصر :

كلمة للحكم ، وثانية لخصمه ، . . . وثالثة للعرب جميعاً .
والكلمات الثلاث من جنس واحد فيه : العنف والحرب والشجاعة .

* * *

أحاسيس تفصح عن سلطان القبيلة ، والتغنى بأجسادها الحربية ، وتزهو بشيبتها
وشبانها ، في ألفاظ وعبارات تتسم بالقوة والجزالة : تصدر الرايات حمرا ، تنقل
إلى قوم رحانا ، قراكم مرداة طحون ، نشق الرموس ونخلى الرقاب إلى غير
ذلك . مما يصور هذا الشعور الحماسي المشتعل .

ولك أن تلاحظ في كثرة استعمال الشاعر لضمير المتكلم جمعاً :

مثل : علينا ، أنظرنا ، وأيام لنا ، عصينا الملك ، تركنا الخيل وهكذا .
ومثل : .. ونحن .. نجز الرموس .. نصبنا مثل رهوة ، وهكذا .

لك أن تلاحظ اختفاء ذاتية الشاعر في ذاتية قبيلته أو اتحادهما ليصيرا عنصراً
واحداً هو القبيلة ، وفي ذلك دلالة على سيطرة القبيلة من جهة ومنزلة الشاعر منها ،
وقيمة في التحدث بلسانها .

ونحن معك إذا ادعيت أن المعاني التي عرضها الشاعر تتميز بالسهولة والبساطة
دون تعقيد أو عمق ، وهكذا كان شعراء العصر الجاهلي ، يصدرون عن فطرتهم
البدوية الواضحة .

وكذلك الصور : تجدها تنقل الطبيعة الجاهلية : بجملها ، ورحاها وصخرها
وخيامها ، وحبالها . . . وأساحة حربها . . صور طبيعية تقرب من الحقيقة ، وتبعد
عن الاستعارات والمجازات الحضارية .

إن عمرو بن كلثوم ، لم يبعد بصفة عامة — عن الواقع كثيراً ، ولم يشأ أن يبالغ
في التعبير عن نفسه أو يتجاوز الواقع ليحلق بنا في عالم الوهم والخيال إنه يصور الواقع
في أمانة وصدق ، فأق شعره مرآة صادقة تنعكس عليها الأحداث التي يراها بعينه ،
وصورها يقينه دون كذب أو مبالغة أو تهويل ، ومن أدلة ذلك أنه يتحدث عن عدوه
— أحياناً — كما يتحدث عن قتيان قبيلته .

كان سيوفنا منا ومنهم حاريق بأيدي لاعبيننا
كان نياينا منا ومنهم خضبن بأرجوان أو طليينا
ومن هنا يظهر لنا صحة ما ذهب إليه بعض النقاد والقدماء عندما سمو هذه
المعلقة والمنصفة . .

وليس معنى هذا أن القصيدة تخلو من ثورة على العدو ، أو اعتزاز وزهو
ببطولة القبيلة ومكانتها ، فالأمر على النقيض ، فالمعلقة - مع روح الإنصاف فيها -
شواظ يضيء بمعاني الشجاعة ، التي لا ترهب الموت ، ولا تباليه ، والتي تتخذ شعارها ،
العيش في كرامة أو الموت تحت ظلال الرماح والسيوف موتاً عزيزاً شريفاً .

كل ذلك في بساطة ووضوح ، دون مبالغة أو غلو يخرج بالشعر عن
حد الاتزان .

وعلى هذا النحو نجد سخرية ابن كلثوم ترتبط بالواقع المحسوس فتزداد وضوحاً
فإذا اجتمع لها - مع ذلك ، الحركة اكتسبت الحيوية ، والسرعة . . . ويتراءى
ذلك في قوله : نزلتم منزل الأضياف . . . البيت والبيتين اللذين بعده ، وجملة
القول : أن هذه المعلقة تصور الشاعر والقبيلة ، والطبيعة والأخلاق السائدة في
مجتمعنا العربي العريق . *

من أشعار لقيط بن يعمر

تمهيد : عرفت قبيلة إياد العربية بالشجاعة والعزة والإباء . فلم يحدث كما تذهب بعض الروايات — أن دان أهلها لملك أو أصابهم في الجاهلية سياء .

وكان موطنهم أولاً في تهامة على ساحل البحر الأحمر . ثم رحلوا عنها إلى الشرق حيث نزلوا السواد من أرض العراق ، وتغلبوا على الجزء الجنوبي من نهر دجلة والعراق مجاورين في ذلك أملاك الفارسيين ، فلم يحسنوا هذا الجوار ، فوَقعت بينهم وبين الأاكسرة حروب كانت سجالاً .

بعد ذلك ارتحل الإياديون إلى الجزء الشمال من دجلة والفرات وكان يسمى أرض الجزيرة ، ولم يتخل الإياديون عن شرابهم وعنفهم ، مما أحفظ عليهم كسرى ملك الفرس فرم على تجهيز جيش للقضاء عليهم .

علم بأمر هذه الحملة العسكرية أحد العرب من بني إياد وكان يعمل كاتباً في أحد دواوين الدولة الفارسية وهو لقيط بن يعمر : فكتب هذه القصيدة يذُر فيها قومه ، ويستنهضهم ، ويحذرهم غزو كسرى .

وتقول الروايات أنه شاعر جاهلي مثل لا يروى له من الشعر غير تلك القصيدة العينية وبعض المقطوعات المتفرقة :

وقد صدر قصيدته تلك بكتاب جليل عنوانه :

سلام في الصحيفة من لقيط إلى مَنْ بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم فلا يشغلكم سوق النقاد^(١)

وكان مطلع تلك القصيدة :

يا دار عمرة مَنْ مُحْتَلها الجرعاً^(٢) هاجت له الهمم والأحزان والرجما^(٣)

(١) النقاد : الأغنام الصغيرة ، أو صنف من الأغنام قباح الوجوه قصار الأرجل . واحدها نقده .

(٢) الجرع والأجرع والجرعاء : الأرض الرملية لا ينبت فيها النبات .

(٣) الرجع بضمين : جمع رجيع وهو الكلام المردود إلى صاحبه .

مَالِي أَرَأَيْتُمْ نِيَامًا فِي بُلْهَنِيَّةٍ^(٤) وَقَد تَرَوْنَ شِهَابَ الْحَرْبِ قَد سَطَعَا
فَاشْفُوا غَالِي لِي رَأْيِي مِنْكُمْ حَصِيدٍ^(٥) يُضِيحُ فَوْادِي لَهُ رِيَانٌ قَد تَقَمَّا^(٦)
وَلَا تَكُونُوا كَمَنْ قَدَّاتٍ مُكْتَنِمًا^(٧)

إِذَا يُقَالُ لَهُ أَفْرِخْ غُمةً كَنَمًا^(٨)
يَسْمَعِي وَيَحْسِبُ أَنَّ الْمَالَ مُنْخَلَّدُهُ إِذَا اسْتَفَادَ طَرِيفًا زَادَهُ طَمَعًا
فَافْتَنُوا^(٩) جِيَادَكُمْ وَأَحْمُوا ذِمَارَكُمْ
وَأَسْتَشْمِرُوا الصَّبْرَ لَا تَسْتَشْمِرُوا الْجَزَاءَ
وَلَا يَدْعُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لِنَائِبَةٍ

كَمَا تَرَكَتُمْ بِأَعْلَى بَيْشَةَ^(١٠) النَّخَمًا^(١١)
صُونُوا جِيَادَكُمْ وَأَجْلُوا سِيُوفَكُمْ وَجِدِّدُوا لِلْقَيْسِيِّ النَّبْلَ وَالشَّرْحَا^(١٢)
أَذْكَوَا^(١٣) الْعُيُونَ وَرَاءَ السَّرْحِ^(١٤) وَآخِرُ سُوا
حَتَّى تُرَى الْخَيْلُ مِنْ تَعْدَائِهَا رُجْمًا^(١٥)

(٤) عيش هنىء .

(٥) مجكم .

(٦) شعاء الغليل ونقع الفؤاد دلالة على اطمئنان النفس .

(٧) راضيا حريصا على ما هو فيه من نعمة .

(٨) جبن وهرب .

(٩) الزموا .

(١٠) بيشة : قرية بهذا الاسم في اليمن .

(١١) النخع : اسم قبيلة يمنية .

(١٢) جمع شرعة وهو الوتر الرقيق .

(١٣) بنوا الجواسيس .

(١٤) الشجر العظيم يستظل به .

(١٥) جمع رجم وهو البعير الممزول أو المتعب من السفر .

وَأَشْرُوا^(١٦) تِلَادَكُمْ فِي حِرْزِ أَنْفُسِكُمْ
وَحِرْزِ أَهْلِكُمْ لَا تَهْلِكُوا هَلْمًا
فَإِنْ غَلَبْتُمْ عَلَى ضَنْ بِدَارِكُمْ
فَقَدْ لَقَيْتُمْ بِأَمْرِ الْحَازِمِ الْفَزَعَا^(١٧)
لَا تُدْبِكُمْ إِبِلٌ لَيْسَتْ لَكُمْ إِبِلٌ
إِنَّ الْعُدُوَّ بِعَظْمٍ مِنْكُمْ قَرَعَا^(١٨)
لَا تُشْمِرُوا الْمَالَ لِلْأَعْدَاءِ لِئِنَّهُمْ
إِنْ يَظْهَرُوا يَحْتَوُوكُمْ وَالتَّلَادَ مَعَا
هَيْهَاتَ لَا مَالَ مِنْ زَرْعٍ وَلَا إِبِلٍ
مُؤَرَّجِي لِنَابِكُمْ إِنْ أَنْفَكُمْ جُدْعَا^(١٩)
وَاللَّهِ مَا أَنْفَكْتِ الْأَمْوَالَ مُذْ أَبَدِ
لِأَهْلِيهَا إِنْ أُصِيبُوا مَرَّةً تَبَعَا
يَا قَوْمُ إِنْ لَكُمْ مِنْ لَزْتِ أَوْلِيكُمْ
تَجِدَادًا قَدْ أَشْفَقْتُ أَنْ يَفْتَى وَيَنْقَطَمَا
مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْكُمْ عِزُّ أَوْلِيكُمْ
إِنْ ضَاعَ آخِرُهُ أَوْ ذَلِكَ وَاتَّضَعَا
يَا قَوْمُ لَا تَأْمَنُوا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرًا^(٢٠)
عَلَى نِسَائِكُمْ كِسْرَى وَمَا جَمَعَا
يَا قَوْمُ بَيِّضْتُمْ^(٢١) لَا تُفْجَمَنَّ بِهَا
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِمُ الْأَزْلَمَ^(٢٢) الْجُدْعَا^(٢٣)
هُوَ الْجَلَاءُ الَّذِي يَحْتَثُّ أَصْلَكُمْ
فَمَنْ رَأَى مِثْلَ ذَارَأِيَا وَمَنْ سَمِعَا

- (١٦) شراء يشريه شري : باعه ، وشراء أيضا : أخذه بمنز .
(١٧) إذا دافعتم دفاع الأبطال عن دياركم وقدر لكم مع هذا أن تغلبوا فلا عار عليكم فيما أصابكم من فزع ، لأن هذا ما يقتضيه الحزم .
(١٨) قرع العظم : الاصابة في الصميم .
(١٩) جدع الأنف قطعه ، وهو كناية عن الازلال .
(٢٠) جمع غيور وهو الذي يغار على أهله .
(٢١) البيضة في الأصل ساحة القوم والمراد هنا الوطن .
(٢٢) الأزلم : المقطوع طرف الأنف وكانوا يفعلون ذلك بالأبل الكريمة .
(٢٣) الجدع : الفتى الصغير السن . والأزلم الجدع يراد به هنا كسرى .

فوموا قياماً على أمشاطٍ أرْجُلِكُمْ

ثم افزعوا^(٢٤) قد ينال الأيمن من فزعاً

وقلِّدوا أمركم لله ذرُّكم^(٢٥) رَحِبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِمًا

لا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدُهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَمًا

لا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْمَثُهُ هَمٌّ يَكَادُ شَبَاهُ يَقْصِمُ الضَّلِيمًا

مُسَهِّدَ النَّوْمِ تَغْنِيهِ أَمْوَالُكُمْ يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطْلَعًا

مَا أَنْفَكَ يَحْلِبُ^(٢٦) هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ

يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعًا

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْرَمَرٍ يَرْتُهُ^(٢٧)

مُسْتَنْخِمِ الرَّأْيِ لِقَحْمًا^(٢٨) وَلَا ضَرِعًا

وَلَيْسَ يَشْفَلُهُ مَالٌ يُبْمَرُهُ عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَنْبِي لَهُ الرِّفْعَا

لَقَدْ بَدَأَتْ لَكُمْ نُسْعِي بِلَادَ خَلٍ فَاسْتَنْقِظُوا إِنْ خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا

هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لَعْنُ رَأْيٍ رَأَيْهِ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعَا

(٢٤) فزع القوم وفزعهم وأفزعهم : أغاثهم .

(٢٥) الدَّر : اللبِن ، وإضافة الدر لله للتعظيم لأنه منشىء العجائب . وهذا

التركيب يقال لمن تتعجب من عمله فتمدحه .

(٢٦) حلبت الدهر أشطره : خبرت ضروبه ومربى خير وشر . مأخوذ من

حلب جميع أخلاف الناقة ما حفل منها باللبن وما لم يحفل .

(٢٧) من امرار الجبل أى شدة قتله ، والمراد استحكام رأيه مع قوته .

(٢٨) القحمة : الشيخ الكبير .

التعليق

نستطيع أن نلج في هذا النص غرضين أساسيين :

الأول : أن الشاعر يحذر قومه الإياديين من الغزو الفارسي ، ويوضح لهم خطر الركون والاستمتاع بما هم فيه من نعيم مقيم ، وما ينتابهم من غفلة عن عدوهم ، ويرجو أن يتمسكوا بالحزم ، وأن يستعدوا للحرب ، ويهيئوا وسائلها ، وأن يبشروا العيون والأرصاد ، ويحترسوا من المفاجأة . وركز على خطورة التلهي بالأموال واستئثارها ، واستحث غيره قومه على نسايتهم ومواطنهم والمحافظة على ما ورثوا من عز طارف وتليد .

ولا ينسى الشاعر أن يبين ما لخطر التهاون في الدفاع عن الوطن من ذل وعار وجلاء عن الأوطان .

الثاني : أن الشاعر يبين ما يجب على المتحاربين من التدقيق في اختيار قائدهم وزعيمهم ، على أن يكون واسع القدرة . خبيراً بفنون الحرب وأساليبها ، عليمأ بأحوال الدهر ، قد مر به خير وشره ، وألا يستبد برأيه ولا يفتخر بنفسه ، مع قوة النفس فلا تبطره النعمة ولا يستذله الفقر ، وأن تكون أمور قومه محل عناية لا يشغله عن ذلك تدمير مال ولا شدة عناية بولد .

وينهى الشاعر قوله ناصحاً قومه وتحذراً من عواقب الإهمال .

ونلاحظ في أسلوب القصيدة سمات الشعر الجاهلي وطابع الحياة البدوية ، ولعله يختلف بمض الشيء عن الشعر الجاهلي الذي نعرفه ، فمعاني هذه القصيدة مرتبة ومتناسكة ، وفيها مسحة من السهولة التي ربما جاءت لتحضر الشاعر وثقافته واتصاله بالحياة الفارسية .

أما ما أورده من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الرئيس والقائد — أى رئيس وأى قائد — وبخاصة زمن الحرب فقد أوفى بها على المراد . وهي صفات لازلتنا في حاجة إليها حتى زمننا هذا .

في الفخر

لطرفه بن العبد

تمهيد : طرفه بن العبد البكري من فحول شعراء الجاهلية اشهر بقول الشاعر في أغراض متعددة كان من بينها الهجاء وكان ذلك سبباً في موته ؛ ذلك أنه هجا أحد الملوك وكان يدعى عمرو بن هند فدير قتله بواسطة وال له في البحرين قام بقتله وهو شاب لم يزد سنه على ست وعشرين سنة . وقد قال طرفه أشعاراً في الفخر منها هذه الأبيات الذي يفخر فيها بقومه .

النص

سَأَلُوا عَنَّا الَّذِي يَمُرُّنَا بِقَوَانَا يَوْمَ تَخْلَقِ اللَّمَمُ^(١)
يَوْمَ تُبْدِي الْبَيْضُ عَن أَسْوَقِهَا^(٢) وَتَلْفُ الْخَيْلُ أَعْرَاجَ النَّعْمِ
أَجْدَرُ النَّاسِ بِرَأْسِ صِلْدَمِ^(٣) حَازِمُ الْأَمْرِ شُجَاعُ فِي الْوَعْمِ
كَامِلٌ يَحْمِلُ آلَاءَ^(٤) الْفَتَى بَيْتَهُ سَيِّدِ سَادَاتِ خِضَمِ
خَيْرٌ حَى مِنْ مَعْدٍ عَلِمُوا لِكَفَى^(٥) وَجَارِ وَابْنِ عَمِ

- (١) يوم تخلق اللمم : أى يوم انتصار بكر على تغلب في حرب البسوس وفيها كان رجال بكر حالفين زعوسهم تمييزاً لهم .
(٢) البيض : المقصود بهن النساء البيض . أسوقها : سوقهن أى يوم تكشف النساء البيض عن سوقهن من هول اليوم وشدته . الأعراج : قطعان الأبل . النعم : الجمال أو الأبل والمعنى أن خيلنا تحوز قطعانا من أبل تغلب .
(٣) الصلدم : القوى والمعنى أننا أجدر الناس بزعيم قوى شجاع .
(٤) الآلاء : النعم والعطايا . والخضم : السيد المعطاء والمعنى ان هذا الزعيم كامل يحمل نعم الفتى الكامل وهو معين معطاء .
(٥) الكفى : المتغير اللون من المؤس أى نحن خير حى من معد عرفه الناس معينا للكفىء والجار وابن العم .

يَجْبُرُ الْحَرْبَ^(٦) فِينَا مَالَهُ
نَقْلُ^(٧) لِلشَّحْمِ فِي مَشْتَاتِنَا
تَزَعُ^(٨) الْجَاهِلَ فِي مَجْلِسِنَا
وَتَقْرَعُنَا مِنْ ابْنِي وَائِلِ
مِنْ بَنِي بَكْرٍ إِذَا مَا نَسَبُوا
حِينَ يَحْيَى النَّاسُ نَحْيِي سِرْبِنَا^(٩)
جِسَامَاتُ^(١٠) تَرَاهَا رُشْمِيَا
وَفُحُولُ^(١١) هَيْكَلَاتٍ وَقَحِ
وَقْنَا^(١٢) جُرْدٌ وَخَيْلٌ ضَمْرٌ
يَبْنَاءُ وَسَوَامٍ وَخَدَمٌ
نُحْرٌ لِلنَّبِيِّ طَرَادُو الْقَرَمِ
فَقَرَى الْمَجْلِسَ فِينَا كَالْحَرَمِ
هَامَةً أَلْجَدِ وَخُرْطُومِ^(١٣) الْكَرَمِ
وَبَنِي تَقْلِبُ ضَرَابِي الْبِهْمِ^(١٤)
وَاضِحِي الْأَوْجِهَةِ مَعْرُوفِي الْكَرَمِ
فِي الضَّرْبِيَّاتِ مُتْرَاتِ الْعَصْمِ
أَعُوجِيَّاتٌ عَلَى الشَّأْوِ أَرْمُ
شُرْبٌ مِنْ تَعْلَاكِ اللَّحْمِ

(٦) المحروب : الذي سلب ماله . السوام : الأبل السائمة والمقصود

أننا نجبر من سلب ماله ونعطيه سكننا وإبلا سائمة وخدما .

(٧) نقل : معطاون . التيب النوق . القرم : شدة اشتهاؤ اللحم لطول
الحرمان منه . أي أننا نعطى من يقصدنا الشحم في الشتاء ونفجر النوق التيب
وننظم من يشتهي اللحم .

(٨) تزع : تزجر والمعنى أننا تزجر الجاهل حتى نجعل لمجلسنا حرمة
واحتراما .

(٩) الخرطوم : الأنف ويكتفى به هنا عن العزة والألفة .

(١٠) البهم : جمع بهمة وهو الشجاع لا يعلم من أين يضرب .

(١١) السرب : النساء أو النفس .

(١٢) الجسامات : السيوف . رشما : جمع راسب وهو السيف .

المترات : القاطعات . العصم : كل ما يعصم ويربط .

(١٣) الفحول : الذكور من الحيوان ، الهيكلات : جمع هيكل وهو العظيم

الجسم ، الوقح : جمع وقاح وهو الفرس الصلب الحافر . أعوجيات : جمع
أعرجي وهو الفرس المنسوب إلى أعوج اسم فرس كريم . أزم جمع أزوم وهو
الفرس النشيط . الشأو : السبق والمعنى أننا نحى سربنا بخيول قوية صلبة
شديدة .

(١٤) قنا : أي الرماح . ضمير : أي ضامرة . تعلاك اللحم : أي مضغها

والعض عليها بالفم .

آدَتُ^(١٥) الصنعةُ في أمتنِهَا
تَتَقَى الأَرْضَ بِأَرَحٍ^(١٦) وَقَحٍ
وَتَقْرَى^(١٧) اللّحْمَ مِنْ تَمَدَّأِهَا
خُلِجٌ^(١٨) الشَّدُّ مُلِحَاتٌ إِذَا
قَدَمَا تَنْضَوُ^(١٩) إِلَى الدَّاعِي إِذَا
بِشْبَابٍ وَكُهُولٍ مُهْدٍ^(٢٠)
فَهِيَ مِنْ تَعَتٍ مُشِيحَاتُ الحَزْمِ
وُزْقٌ يَقْمَرُنُ أَنْبَاكَ الأَكْمِ
وَالْتغَالَى فَهِيَ قُبٌّ كَالعَجَمِ
شَالَتْ الأَيْدِي عَمَلِيهَا بِالْجِذَمِ
خَلَّلَ الدَّاعِي بِدَعْوَى نَمِّ عَمِّ
كَلِيوُثٍ بَيْنَ عَرِيْسِ الأَجَمِ

(١٥) آدت : قويت . الصنعة : حسن القيام على تربية الفرس . الأمتن : الظهور . مشيحات الحزم : أى أن أحزمتها متقدمة أو مرتفعة الى الأمام . أى أن هذه الخيل قويت ظهورها وأعظمها من حسن القيام عليها: حتى أنك ترى أحزمتها مرتفعة .

(١٦) الأرح : الحافر العريض . وقح : جمع وقاح وهو الحافر الصلب . وزق : جمع أوزق وهو ذو اللون الأسود فى بياض كالرماد . يقمرن : يقتلعن . الأنباك : جمع نبك وهى الأرض المرتفعة .

(١٧) تقرأ : ينشق . التعداد : العدو . القب : جمع أقب وهى الخيل دقيقة الحصر ضامرة البطن . العجم : النوى أى أن هذه الخيل يتشقق لحمها من شدة عدوها وصعودها فهى ضامرة يابسة العضل كأنها النوى فى الصلابة .

(١٨) الخيلج : جمع خلوج وهى سريعة الجرى . الشد : العدو . الملحات : المنصبات فى الجرى . الجذم : جمع جذمة وهو السوط .

(١٩) تنضو : تسرع قدما بدون انحراف . خلل : خصص أى أنها تسرع الى نجدة المستغيث إذا خصص ثم عاد الى التعميم لاشتداد كربه .

(٢٠) النهدي : جمع ناهد وهى الشجاع . العريس : مأوى الأسد . الأجم : الشجر الكثيف .

زفرة والد

لعبد الله بن ربيعة الثقفي (أمية بن أبي الصلت)

تمهيد : أما الشاعر جاهلي أدرك الاسلام (مخضرم) .. من قبيله ثقيف بالطائف
اشتهر في العصر الجاهلي ، تأثر بالقيم والمبادئ الانسانية التي عرفها العرب من الاديان
الساوية ، وبما أثر عن حكماهم .

النص

- ١ - غَدَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعَلْتِكَ يَافِمَا تَمَلُّ بِمَا أُدْنِي لِأَيْتِكَ وَتَهْتَلُّ
- ٢ - إِذْ أَلَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشُّكُومِ أَيْتٍ لَشَكْوَاكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّ
- ٣ - كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِفْتُ بِهِ دُونِي ، وَعَيْنِي تَهْمِلُ
- ٤ - تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ ، وَإِنِّي لَتَعَلَّمُ أَنَّ المَوْتَ حَتْمٌ مُوَجَّلٌ
- ٥ - فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيهَا أَوْمِلُ
- ٦ - جَعَلْتَ جَزَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغِلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ المَنْعَمُ المَتَفَضَّلُ
- ٧ - فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَزَعْ حَقَّ أَبَوِّي فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المَجَاوِرُ يَفْعَلُ

التعليق

والشاعر هنا يصف حالة نفسية تعزى الأب عندما يجابه بما لا يتوقع من ولده
عزيز تعده بالمعطف ، وأغدق عليه بالحنان إنه غاضب في رفق ، محتج في أمل .

- (١) غدتوك : قدمت لك الغذاء . علتك : ربيتك وكفلتك . تمل : تشرب
نانيا . تهتلل : تشرب أولا .
- (٢) نابتك : أصابتك . أتملل : أتقلب متأللا .
- (٣) المطروق : المصائب . تهمل : تدبغ .
- (٤) الردى : الهلاك .
- (٦) جبها : مقابلتى بما أكره .

وعهدنا بالغضب أن يجلب العنف، وبالاحتجاج أن يسلم إلى السخط .. هذا عند غير الآباء .. أما الآباء فغضب ورفق واحتجاج وأمل في آن واحد .

* * *

يسرد الأب في بساطة مظاهر عطفه على ولده في مجال عتاب حزين تتوالى فيه ألوان من الرعاية : غذوتك ، وعلتك ، وأشكيتك ، عواطف نبيلة يشاكلها : عطفك ، وبررت وحفظت الجميل .. لم يحدث هذا .. ولكن الأب يفاجأ بتكران يمتصر قلبه .. وجمعت جزائى منك جبها وغلظة ، يقابله بأمنية دامية أسوانة في مطلب وحيد متواضع : فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعات كما الجار المجاور يفعل .
لأنه يريد منه حق الجوار بعد عشرة طال مداها ..
بعد ضياع الأمل في بنوة وفيه لأبوة حانية ..

* * *

وقد عرض الشاعر هذه الآفة للعائبة الحزينة مؤثراً بالحقيقة الشاعرة والكلمة المعبرة ..

حقائق تتوالى من إحسان الأب على ولده يسردها على أرض الواقع ولا يخلق بها إلى سماوات الخيال .. ولأنه لغنى عن ذلك ما دامت هذه الحقيقة من النوع النفسى الذى يعايش الأحاسيس ، ويهز الوجدان .

وكلمات في نسق رائع لا يستطيعه غير أديب مطبوع : ألفاظ وعبارات سهلة ، وجمل تتوالى في سماحة تكشف عن الفكرة وتمز المشاعر في آن واحد ..

استمع إلى قوله : غذوتك بجوار مولوداً ، وعلتك بجوار يافعاً لتحس بموسيقا التناسب بجوار موسيقا النغم ، وهذا الحنان المكثف الذى لا يؤدى بغير قوله .. تعال بما أدنى إليك وتنهل ، الكلمات بصورها ، وترتيبها ، تمثل إشفاق الأب وحرصه على أن يقدم لابنه ما يريد ، وأكثر مما يريد ، وهذه الكلمة التى تجسم القلق والالم والإشفاق ، أتأمل ، وتركزه في قلب الأب وجثمانه ، وحركانه وسكناته ليمتص ما ينوب ولده في كل وقت ، في كل ليلة ، أى ليلة .

* * *

سلامة في التعبير ، تسابير الحب الفطرى ، وتفصح عن أرقى عاطفة يحس بها البشر (*) .

عند

فيه

تأ

به..

تدع:

كلية

خلق

سى

لة،

ميقا

تعمل

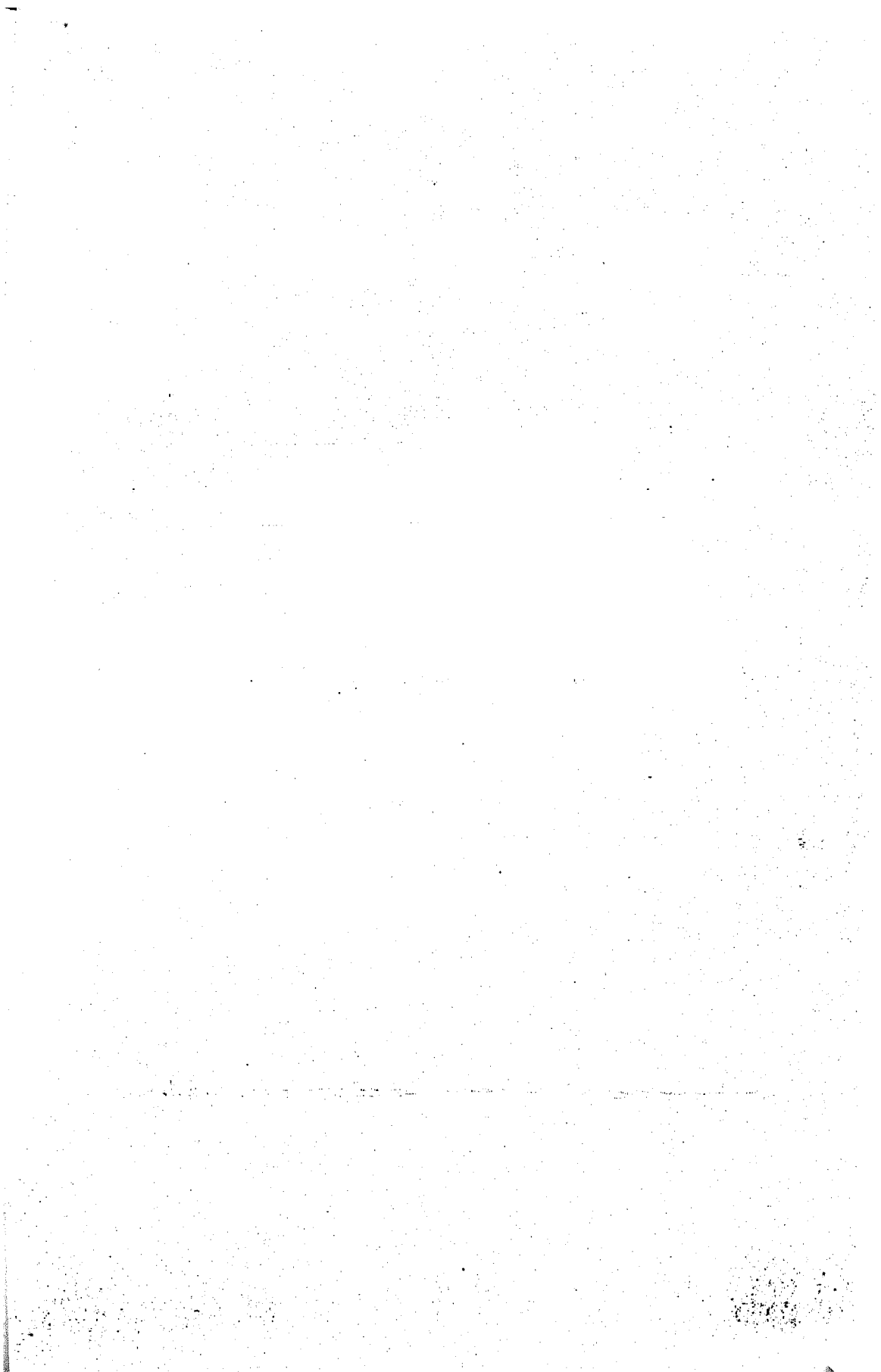
صه

لازم

ص:

.١٥

العصر الإسلامي



العصر الإسلامي

عصر صدر الإسلام وبنى أمية

[١] صدر الإسلام :

لسنا مع هؤلاء الذين يزعمون أن الشعر في صدر الإسلام قد خفت صوته ،
وضعف لفظه ، وتواضعت أقدار منشديه .

ربما استدل هؤلاء الزاعمون بأدلة عقلية يستمدونها مما قرروا سابقون من مؤرخي
الأدب أو المهتمين به ، أو بأدلة عقلية يعتمدون فيها على تعليقات يسوغون بها هذا
الضعف والاضعف .

وربما كان رأى هؤلاء الزاعمين منقولاً من عبارات سطرها صاحب « طبقات
فحول الشعراء » ، ابن سلام ، وتناولها الرواة والمؤرخون من بعده إذ يقول : « جاء
الإسلام وتشاغلنا عن الشعر العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ،
ولغت (العرب) عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت
العرب والأمصار راجعوا رواية الشعر (١) » .

ولعل مؤرخينا المحدثين معذورون عندما يرددون هذا القول ، ولم يكلفوا
أنفسهم مناقشته مادام ابن خلدون نفسه ، وهو العالم الناقد والمؤرخ الواعي قد تورط
في هذا الخطأ عندما قال في مقدمته :

« انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة
والوحي ، وبما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا
عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

الوحى فى تحريم الشعر وحظره ، وسممه النبى (ﷺ) وأثاب عليه فرجموا حينئذ
عن دينهم منه (١).

وقد يجد أصحاب الرأى أن القرآن الكريم يؤكد مذهبهم حيث يقول عز وجل
فى سورة الشعراء : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم فى كل واديينمون ، وأنهم
يقولون ما لا يفعلون » (٢).

ويجد هؤلاء تعليقات عقلية لهذا الضعف وذلك التهاك ؛ يقولون : ينمو الشعر
ويزدهر حيث العصية القبلية ، والثارات ، والإحن التى تتحرك منها المشاعر ،
وتثور الانفعالات شعراً نابغاً . . أعماق الشعراء .

وهكذا كان شأن شعراء الجاهلية فى وصف معارك العرب فى أيامها التى شملت
معارك البسوس ، وداحس والغبراء وغيرهما ، وفى هذه الأيام استمعنا من شاعر
كعمرو بن كلثوم ، شاعر تغلب . والحارث بن حلوة ، شاعر بكر فى حرب البسوس ،
وكعترة بن شداد شاعر عبس . فإن لم تفجر هذه الحروب يتابع الشعر فجرها عطاء
السادة من ملوك الحيرة والفساستة . كما صنعوا مع النابتة الديبانية .

وما دام هذا العطاء لا يجد سيئله إلههم إلا بمقدار فلا نتموقع غير الانصراف عن
الشعر ، وهكذا كان الخلفاء الراشدون يحملون حملة عنيفة على الشعراء . وكان عمر
ابن الخطاب أسبقهم إلى ذلك وأحرصهم عليه . فلم يقف هؤلاء الخلفاء عن العطاء
فقط بل تجاوزوا ذلك إلى التهديد بالعقاب .

أرسل عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة . عامله على السكوفة أن استنشد من
من قبلك من الشعراء ما قالوا فى الإسلام ، فسأل الاغلب العجلي فبادره قائلاً :

لقد سألت حيناً موجوداً أرجزاً تريد أم قصيداً

وسأل لبيدأ فكذب سورة البقرة ، فأخذ عمر خمسمائة من عطاء الاغلب وزادها
فى عطاء لبيد .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وعلى هذا النسق كان علي بن أبي طالب ، فقد مر (كرم الله وجهه) على مدائن كسرى فسمع جرير بن سهم التميمي يتمثل قول الأسود بن يعفر :

جرت الرياح إلى مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد (١)

فقال علي . لم لم تقل كما قال الله جل وعز . كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين ، (٢) .

هذا رأيهم وتلك أغلب حججهم ، ولكننا نذهب إلى التقيض من ذلك فترى أن الشعر لم يكن ضعيفاً ولا متافهاً ولا غافلاً في عصر صدر الإسلام ، فهذه الأدلة التي ساقوها مردود عليها :

فما يراه ابن سلام ويردده ابن خلدون ويتناقله الرواة إنما أرادوا به لونا معينا من الشعر وهو الشعر الذي يهاجم الإسلام أو يتعارض مع مبادئه السمحية ، وأن عدداً غير قليل من المسلمين قد رجعوا عن رواية لون معين من الشعر هو الذي يأباه الإسلام ، ولا يسمح لمن يدين بخلفه ، ويتحلى بمقيدته أن ينحدر فيروي شعراً في الحز . أو يردد قصيداً يشير به حزازات بين القبائل ، أو يذكر الأشخاص بما كان بينهم من عداوات . فكيف يروون شيئاً من ذلك وبين أيديهم القرآن الكريم . وأمام عيونهم الرسول عليه السلام ينثر على مسامعهم بين حين وآخر آيات بينات وعظات وعبراً تجعلهم يسكنون فلا يخوضون إلا فيما يتلامح مع مبادئه وما يتعبد طريقته المستقيم .

وهكذا القرآن لا يذم أي شعر ، ولكنه يقصد نوعاً معيناً واستثنى من الشعراء الذين آمنوا فقال :

والشعراء يتبعهم الغاؤون . . . ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانصروا من بعد ما ظلموا .

وأتى الإسلام واستبدل العرب معارك بمعارك ، غير أن المعارك الجديدة لم تكن بين قبيلة ، وقبيلة ولاكنها كانت بين الإسلام والكفر . وليست هذه المعارك الأخيرة بأقل حاجة للشعر من المعارك القديمة .

(١) الأغاني ج ١١ ص ١٣٥ .

(٢) سورة الدخان آية ٢٥ - ٢٨ .

وكان عليه السلام يشجع الشعر ويثبت عليه ، وله شعراؤه الذين اتخذ منهم سيوفاً يسلمها على أعدائه ، ومن هؤلاء حسان بن ثابت . وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

وكان الرسول يقول : وإن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة ، واستمع لآل شعر الذين هجوه من أعدائه فقال للأَنْصار :

« ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسولَ الله بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم ، فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرنى به بقول بين بصري وصنعماء ،^(١) وانبرى لهم حسان بن ثابت ، وعاونته من شعراء الأنصار جماعة تعد على رأسهم : كعب بن مالك . وعبد الله بن رواحة . وكان الصحابة كما كان الرسول يقدرون الشعر ، فمذا هو كعب بن زهير ينشد قصيدته التي استعطف فيها فيها الرسول ومطلعها :

« بابت سعاد فقلبي اليوم متبول ،

ينشدها في المسجد ، والرسول والصحابة يستمعون إليه ثم يخلع الرسول عليه برده ، وقد أثر عن الخلفاء الراشدين أنهم يحفظون الشعر ويستشهدون به في خطبهم ويتمشون به في كلامهم ، وأثر عنهم جميعهم حب الشعر والشعراء والإثابة على الشعر . وإذا كانت العصبية القبلية قد اخفت في مجتمع المسلمين قلوبهم ثم تحجب بين عامة العرب وخاصة غير المسلمين ممن يسكنون البوادي ويقضون حياتهم في الحل والترحال . وغير معقول أن يقضى الإسلام على الشعر والشعراء في يوم وليلة ولا في شهور وسنين ، ومن المستبعد أن يضعفه ، مادامت هذه الدعوة الجديدة تدعو المناصرين لها والمناهضين إلى حمل السيف للدفاع عنها أو مهاجمتها ، ويجوز أنهما مدافعون عن الدين القديم ومهاجمون أيضاً وهؤلاء وهؤلاء يسلمون السنتهم بجوار سيوفهم ولم تسكد تستقر الدعوة الجديدة في أواخر حياة الرسول ويكتب لها للقبلة حتى شاعت الفتنة بعد وفاته بارتداد أقوام في عهد أبي بكر . وللهرتدين أشعار ولللسلين أشعار . وعندما انطلق العرب في عهد أبي بكر وعمر يفتحون البلاد في فارس والروم أخذ شعراؤهم ينشدون أناشيد الجهاد .

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٣٧ .

وكانت فتنة عثمان ، وانقسام المسلمين شيعاً وأحزاباً في عهد علي ، واشتغال
فيران الحروب يتوذيها أعلام الرجال والنساء أمثال طلحة والزبير وعائشة ومعاوية
ابن أبي سفيان فعلت أصوات الشعراء وتصايحوا في كل مكان فكيف يقال بعد ذلك
كله إن الشعر قد ضعف عن المستوى العربي والإسلامي . ومكة لم تفتح إلا في العام
الثامن من الهجرة ولمكة شعراؤها ، وللبوادي شعراؤها ، وهناك من قبل ومن بعد
المخضرمون الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام يحافظون على المستوى العام الذي
وصل إليه الشعر ، ومن هؤلاء المخضرمين حسان بن ثابت ، كعب بن زهير ،
والخطيب بن أخوه ، وليد بن ربيعة ، والنايفة الجعدي وغيرهم كثير .

فإذا ادعى بأن الألفاظ الرصينة والصيغة البدوية لم تعد بعد الإسلام على النحو
الذي كان عليه الشعر قبله ، فإننا مع تسليمتنا بذلك لانذهب إلى أن الشعر قد ضعف
فهذه نظرة لغوية يرددها علماء اللغة ويناصرها علماء النحو أما الأدب ورواياته
وناقدوه فإنهم يرون في ذلك تطورا ونماء فليس الشعر ألقاظاً وعبارات ولسكنه
عاطفة ومشاعر ، وقيم ومبادئ ، ومعان وأفكار ، وأخيلة وصور وكل هذه
الجوانب قد تمت في ظلال الإسلام واكتسب الشعر بهاء وهوياً .

أثر الإسلام والقرآن في اللغة والأدب :

شاع في الإسلام اتجاهات وقيم جديدة جاء بها الدين الجديد وغرسها في نفوس
أتباعه ، وحملها الفاتحون معهم إلى كل بلد فتحوه ، وهذه القيم الجديدة لم تؤثر
تأثيراً سطحياً يقف عند أسمائها . وبعض مسمياتها ، ولسكنها تجاوزت ذلك إلى التأثير
في السلوك ، والأفكار ، والعادات والتقاليد .

ومن هذه القيم ما هو روي يعتمد على الإيمان بالله واليوم الآخر ، والتصديق
بما جاء به الأنبياء والمرسلون ، والاسترشاد بالخلق الطيب الذي يوضح القرآن
معامله في : الرحمة والمودة ، والتعاطف ، والتعاون والنظام والصفح الجميل ، والصبر ،
والصراحة وصدق الوعد ، والأمانة .

ومنما ما هو يدعو إلى استعمال العقل ونبذ التقليد ويحث على الاجتهاد والتجريب ،
ويرفع شأن العلم ويحارب الجهل .

ومنما ما هو اجتماعي يحافظ على تماسك الأمة وتقاليد الأسرة . والبر بالآباء

والأمهات وإعطاء المرأة حقوقها ومنها هو إنساني يرتفع بكرامة الإنسان ويحافظ على حقوقه مسلماً أو غير مسلم .

وهذه التعاليم وتلك التقاليد هي التي دعا لها الإسلام ، وبها فتح العرب العراق والشام ، ومصر والأندلس ، وبها كان للمسلمين مكانتهم في خراسان والهند ، وبها كان يتغنى الشعراء المسلمون في عهد الرسول وفي عهد خلفائه الراشدين .

وقد امتاز الدين الجديد بأنه يدعو إلى هذه القيم بكتاب هو القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولم يتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والأفكار شهد له الوليد بن المغيرة ، وكان من ألد خصومه . والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق .

وكان من أهم آثاره اللفظية أنه جمع العرب على لهجة قريش وقرب ما بين اللهجات العربية من فروق ، واستكمل للغة قريش ولهجتها السيادة على اللهجات العربية جميعها . وانتقل بهذه اللغة إلى العالم الإسلامي كله فبقيت ما بنى القرآن غضة لا تبلى مع الزمان .

وبذلك أحل في لغة العرب معاني لم تكن تكن تعرفها قبله مثل : الجنة والنار والكفر والإيمان ، والصوم والصلاة والزكاة .

وقامت حواره عدة علوم في سبيل المحافظة عليه : منها النحو واللغة والقراءات وبقية العلوم الإسلامية .

ومن يكن النثر بأقل تأثيراً بالإسلام وتعاليمه ، وبالقرآن والحديث — من الشعر بل كان أكثر تأثيراً لأن الخطابة كانت هي الوسيلة الطبيعية للدعوة إلى العقيدة الجديدة وكان الحوار بين الدعاة والمعارضين لها يتخذ من النثر وسيلة الأداء .

فكانت الخطابة وعظاً وإرشاداً ودعوة إلى ما فيه كمال الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأخذت مبادئها تنسج وتنسج بكثرة الفتوح واشتعال الفتن بين المسلمين فكان منها ما يتصل بالحرب والنضال والدعوة إلى الاستبانة في الحروب ، وكان

منها ما يتصل بمعارضة الخصوم ، ومعالجة الطوائف ، وكانت كلها تعتمد على آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول تستمد منها القوة والجلال .

وتطورت الكتابة أيضاً بتعدد مجالاتها وتنوع موضوعاتها التي لم تسكن للعرب قبل الإسلام — بها عهد ، فالرسول قد عني بها ، وحمل أسرى بدر على تعليم صبيان المسلمين ، وبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء ، وسار على نهجه خلفاؤه الراشدون خاصة عمر الفاروق ، فسكتبوا إلى الولاة وقادة الفتوح بما يعين لهم من تعاليم واتجاهات

فتوافرت للكتاب في صدر الإسلام أسباب التطور والنهوض .

[ب] في عصر بني أمية :

تجمع كلمة المؤرخين على أن الأدب في العصر الأموي قد اكتظمت له عناصر الفتوة والشباب ؛ قتل عثمان (رضي الله عنه) فأدى مقتله إلى انقسام الأمة الإسلامية ومجاربة بعضها بعضاً ، والشعر يزدهر حيث الحروب والمنازعات ، ولم يكد الأمر يستقر لمعاوية بن أبي سفيان وللأسرة الأموية من بعده حتى اندفعت الجيوش العربية من جديد لتفتح بلاداً في العراق وإيران وخراسان وفي الشام ومصر وبلاد المغرب ، ثم عبروا المحيط إلى بلاد الأندلس .

ولم يكن العرب بالذين يتعالون على البلاد المفتوحة بل كانوا يعيشون في تلك البلاد سواسية مع أهلها الأصليين ، وامتزجوا بهم زواجاً ومعاملات ، وهنا أخذت لغات أهل هذه البلاد تترك مكانها من ألسنة أصحابها لتحل محالها العربية لغة الدين والقرآن .

ومن هنا نشأت مراكز للشعر في هذا العصر .

— فهناك المدينة ومكة : وقد تحضرتا تحضراً واسعاً ، وعاشت كل منهما عيشة ترف ودعة وشاع فيها شعر الحب والغزل وشغف أهلها بالغناء شغفاً شديداً .

وقد ترجم أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني لعدد غير قليل من شعراء هاتين المدينتين . منهم : النعمان بن بشير ، والأحوص بن محمد ، وعبيد الله بن مسعود من المدينة ، وفي مكة نجد الشاعر الخفيف الروح . النارمي ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وعمر بن أبي ربيعة بل نجد الشاعرة الثريا بنت علي بن الحارث .

— وهناك نجد وبوادي الحجاز ، وفيها ظلت المنافسات القبلية على المراعى ، ولم تأخذ حظاً من الترف ، ولذلك بقيت القبائل في هذه الجهات يتربص بعضها ببعض ، ودفع شظف المعيشة في هذه البيئمة البدوية كثيراً من شعرائها للوفود على الخلفاء في دمشق والولاية في مكة والمدينة والسكوفة والبصرة يطلبون نوالهم .

وأبرز ما في هذه البيئمة ، شعر الغزل الذي شاع فيه النيل والسمو والطهارة والنقاء وهنا تظهر شهرة بني عذرة وبني عامر .

— وهناك يجتمع البصرة والسكوفة ، وهما المدينتان اللتان انشأهما سيدنا عمر لتسكونا معسكرين يمدان الجيوش الفاتحة بما تحتاج من أمداد وتسكونا في الوقت نفسه زكيزتين للسليين ، حتى لا يذوبوا في البلاد التي ينتحونها ، وهذان المعسكران كأننا مقر الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الاموى جميعاً .

وبعضى الزمن صارت السكوفة مركزاً للشيعة يتعضون لآل على ويقتظرون أن يخرج من صلبه من يخلصهم من ظلم بني أمية .

أما البصرة فلم تشغل بالخصومات الشيعية ، بل كانوا يميلون إلى بني أمية . ولكن هذا الميل لم يكن عنيفاً لأنهم شغلوا بما بينهم من عصبية قبلية .

ومن هنا شاع في السكوفة شعر الشيعة ، أما في البصرة فقد شاع فيها الفخر والهجاء والمدح وكان على رأسهم جرير ، الشاعر المشهور .

ولم تسكن هذه الحواضر فقط هي التي شاع فيها الشعر ، بل إن الأمر كان أكثر من ذلك اتساعاً نحو الشرق حيث ، خراسان ، وغرباً نحو الشام ومصر ، وإن كان الشعر في الجزيرة الفارسية أرق وأكثر شيوعاً منه في الشام ومصر .

وجملة القول أن الأمة العربية قد تقدمت عسكرياً واقتصادياً ، واستقرت سياسياً وتدفقت إليها الموارد بالخيرات ، وعظمت مكانة الدولة في الداخل والخارج وكل ذلك كان يتردد صداه في الأدب . والذي نتوقه حينئذ أن ينمو شعر المدح وتلقى الحكام والدعاية لهم طمعاً في جوائزهم ، وأخذ الشعراء يأخذون أنفسهم بتجويد العبارة واختيار الألفاظ . فبلغ الشعر بذلك مستوى رفيعاً .

فن شعراء المدح : نصيب ، وكعب بن معدان الأزدي ، وزياد الأعمى .

وظهر بجوار هؤلاء شعراء هجاءون أمثال ابن مفرغ ، وثابت بن كعب .

ويشيع في عصر بني أمية ما يسمى «التفائض» نتيجة لاشتعال نار الخلافات والفتن والعصبيات بين القبائل يؤازر ذلك عوامل اجتماعية ، تتجلى في شيوع اللهو ، وكثرة الفراغ ، وعوامل عقلية تتجلى في نمو العقل العربي ومرآته الواسع على الحوار والجدل والمناظرة .

وأشهر من وقفوا حياتهم على تلك التفائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق وهما ينتميان إلى قبيلة تميم .

وإذا كان شعر المديح ترفاً إلى الرؤساء وأشادة بهم ، وشعر الهجاء على المستوى الفردي أو القبلي نوعاً من تسلية الحكام وتزجية أوقات الفراغ فالذي نتوقه أن يكون الشعر السياسي هو الغرض السائد في هذا العصر تبعاً للظروف التي ذكرنا جانباً منها ؛ وأشيع المذاهب السياسية الآتية :

[أ] الزبيريون : وهم أتباع عبد الله بن الزبير ويمثلهم من الناحية الفنية عبيد الله بن قيس الرقيات .

[ب] خوارج : وهؤلاء هم الذين خرجوا على علي وعلي ومعاوية ، ويعتقدون أن الرئاسة ليست وفقاً على طائفة دون أخرى . ولكن يدعون إلى أن الناس سواسية عند الله ، وأفضلهم أتقاهم وأصلحهم للرياسة ولو كان عبداً حبشياً بغض النظر عن انتمائه إلى الشيعة أو إلى بني أمية أو انحداره من قبيلة شريفة أو ضيعة ويمثل هؤلاء الشعراء من الوجهة الفنية : الطرماح .

[ج] الشيعة : وهي الفئة المناهضة للحكم الأموي الداعية لسلالة علي كرم الله وجهه فقد استمر كثير من هذه الطائفة يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهل الخلافة الحقيقيون ، وأصحابها الشرعيون وأن الأمويين قد اغتصبوها ، وينبغي أن تنتزع منهم وعلى نحو من الإصرار العنيف من شعراء الخوارج كان إصرار شعراء الشيعة الذين انقسموا فيما بينهم طوائف ولكل طائفة أكثر من شاعر ويحتفظ لنا كتاب «مقاتل الطالبيين» لأبي الفرج الأصبهاني ، ومرآة الحسين للطبري ، بنماذج من أشعار كلها دموع وبكاء وزفرات على آل علي وأحفاده ، وقد تحولت هذه المرثية الباكية إلى تحريض على الأخذ بالثأر وحث على سفك الدماء ، ومن أشهر شعراء الشيعة : كثير بن عبد الرحمن ، والسكيت بن زيد الأسدي صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب
وفيهما بنى هاشم رهنط النبي فإني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

- وفي مقابل هذه الطوائف نجد عدداً وافراً من شعراء الحزب الحاكم الذين يدعون لبني أمية ويتصدون للهاجيين لهم ، وقليلاً ما كان ذلك صدوراً عن عقيدة - بل كان في أكثره تملقاً إلى الحكام ورغبة في الحصول على العطاء . وهذا الصنف الأخير كثير بين الشعراء بل إننا نجد من أعداء بني أمية من يمدحهم لينال عطاءهم كعميد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين الذي مدح عبد الملك مروان عامل بني أمية الكبير .

أما النوع الأول الذي يمدح عن اقتناع ويدعو للأمويين عن حب وولاء فنستطيع أن نقول إن شعره قد تجاوز مجرد المدح إلى تضال عن الحكم وتوكيد لسعوة معينة - وهذا هو الشعر السياسي الذي حمل لواءه الأمويون أنفسهم أمثال الوليد بن عقبة - ونجد غير المسلمين يخوضون هذا الميدان ويمثل ذلك الأخطل التغلبي وهؤلاء الشعراء كانوا أقرب إلى قلوب بني أمية يجزلون لهم عطاء أكثر من الذين يتكسبون بشعرهم كما صنع بنو أمية مع التوكل الليثي وكما صنع المروانيون مع أبي العباس الأعشى الشاعر المكي فقد كان من شعراء بني أمية المدعوين المقدمين في مدحهم والتشجيع لهم وعدى بن الرقاع ، وكان مقدماً عندهم كذلك ويكاد يكون شعره خاصاً بالوليد ابن عبد الملك

ومن هذا تعلم أن الشعراء في هذا العهد الأموي كانوا طليعة الاتجاهات المتناقضة في ميادين السياسة ، وأنهم كانوا من أحزابهم بمنزلة الصحف الحزبية في عصرنا الحديث ، ينطق الشاعر عن حزبه ويتحدث بلسانه ، ويهاجم في عنف أو غير عنف الأحزاب الأخرى ويتصدى لأصحاب السلطان فيها حكاماً أو شعراء أو خطباء .

وإذا كنا قد نظرنا إلى الطوائف السابقة فوجدناها زبيريين . وخوارج وشيعة وأمويين ، فإننا نعتز بجوارها على عدد من الشعراء قد عاشوا للفن وصدروا عن أحاديثه ، وتكونت لهم سمات يعرفون بها ، ولا يتسع لنا المقام للتحدث عن مييزات كل شاعر . وحسبنا أن تشير إلى طوائفهم حسب الفنون الذين عرفوا بها -

— شعراء غزليون، وهؤلاء ينقسمون بدورهم فريقين : فريقاً عرّف
بحديثه الصريح وجرأته في وصف محاسن النساء وشيخ هؤلاء عمر بن أبي ربيعة ،
وعلي منبه سار الاحوص ، والعرجي .

وفريقاً عرف بتهامه بوحدة ، يخلص لها ويكن أحاسيس الولاء والوفاء
وهؤلاء هم العذريون الذين عاشوا للحرمان : ومنهم قيس بن ذريح وجميل بن معمر
وكان للقرآن الكريم وتعاليم الدين وتقاليد القبيلة والبادية آثارها في أشعارهم .

— وعاصر هؤلاء شعراء عرفوا باللهو والتماجن والتهاون في شأن الدين
والجراة على الساحة الخلقية والتجاوز في الاستخفاف بالقيم . ومن هؤلاء كان الوليد
ابن زيد . وأبو الهندي .

— ومن الطبيعي أن يعايش هؤلاء شعراء آخرون تأثروا بالدين وانقطعوا
للعيادة ، وحملوا الواه الدعوة إلى الزهادة في الحياة الدنيا متأثرين في ذلك بالقرآن
والحديث وسيرة الصحابة ، وقد هالم أن ينغمس فريق في المجنون علي مرأى ومسمع
من الخليفة ، وأن يجدوا ذلك في مكة نفسها موله الرسول والبلد الحرام — وفي المدينة
المنورة معقل الإيمان ودرع الإسلام ، فتمضوا برسالة أملاها عليهم دينهم وكتابهم
فأخذوا يدعون إلى الزهد في الحياة ويمتصمون بتعاليم الدين ويصرخون في وجه
الخارجين عليها ، ومن هؤلاء الشعراء أبو الأسود الدؤلي ، وسابق البربري .

— وقد وجدت الطبيعة من يخلص لها ويأوى إلى جمالها يتعبد في محرابها ولم
يكن حديثه عنها مجرد صورة تعرض في ثنايا القصيد بل كانت له وقفات طويلة
متأنية أمام لوحات الجمال فيها . . . ويمثل هذا الفريق في العصر الأموي ذو الرمة ،
شاعر الطبيعة المبدع .

وكما تنض الشعر في هذا العصر نهض النثر أيضاً . بل كانت بعض فنونه أكثر ازدهاراً
من الشعر ، فمن الخطابة بصفة خاصة قد تنوع ونهض . وقد كان الأمويون عامة ،
وولاتهم وقواد جبو شهرهم خاصة خطباء . ومن يجمل في هذا المقام زياد بن أبيه
والحجاج بن يوسف ، وغيرهما من أعلام الخطابة السياسية .

وفي المناسبات المختلفة كالعيدين وأول العام الهجري . وفي حفلاتهم العامة
والخاصة قام خطباء المحافل فرفدوا عقيرتهم بخطب جاءت غاية في الفصاحة والبيان

وكان لخطبهم تقانيد مرعية في البدء والختام والتأثر بتأثر الشعر والنثر ومن هذا الفريق الأحنف بن قيس .

وفي محاذاة الشعر الزاهد الذي شاع في هذا العصر نذكر خطباء الوعظ والقصص وقد ظفر والحسن البصرى ، الواعظ الزاهد بعناية كبيرة من مؤرخى الأدب في هذه الفترة .

* * *

فإذا تجاوزنا فن الكلمة المسموعة شعراً وخطابة إلى الكلمة المكتوبة ألفينا فنونا متنوعة ، لكل فن فيها خصائصه وكتابه ، فقد سار أمراء بني أمية على نهج الرسول وخلفائه في كتابة الرسائل وتدوين الدواوين ، وأشرف عليها كتاب من العرب .

* * *

وستقدم إليك نماذج متنوعة من أدب هذا العصر: إن لم نقف بك عند كل اتجاه فحسبنا أن نرسم فيها صورة عامة ، نستشعر بها بعض آيات الفن والجمال (٥).

من سورة لقمان^(٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ^(١) تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ^(٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ^(٣)
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُرْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ^(٤)
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٥) وَمِنَ النَّاسِ مَن
يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ^(٦) وَإِذَا مُتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ
الْأَلِيمِ^(٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ أَلْوَعٌ^(٨)
خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٩) خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) الآيات ١ : ٢٣ .

(١) أَلَمْ : حروف يتألف منها ومن غيرها الكلام ، والقراءة ، والكتابة ، ومع ذلك لم يستطع العرب - وهم المشهورون بالفصاحة ، أن يؤلفوا من حروفهم وهي في متناول أيديهم قرآنا ، أو عشر سور ، أو سورة ، أو آية ترتقى الى مستوى القرآن الكريم . وهذا دليل على الاعجاز . . . وذلك أقصى درجات التحدى .

وفي هذه الحروف التي تتقدم السور اشارة الى رغبة الاسلام في معرفة القراءة والكتابة ، وحرصه عليهما ، فهما باب المعرفة ، وطريق العلم .

(٢) تلك آيات الكتاب : من هذه الحروف يتكون القرآن .

(٣) يوقنون : يعتقدون ويؤمنون .

(٤) لهم الحديث : ما يلهي من الكلام : كالحرفات ، وكل ما لا نفع فيه ، ويتخذها هزوا : يتخذ سبيل الله وطريقه هزوا : أى يستهزئ بسبيل الله .

(٥) وقرا : صمما ، فبشره : المراد فأنذره .

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُونَهَا ، وَالْأُتَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ،
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ^(١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ
مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ^(١١) وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ
الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ^(١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ
يُعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ^(١٣) وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا وَاللَّهُ عَلَى وَهْنٍ وَفِعَالُهُ فِي عَامَتَيْنِ
أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ^(١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ
تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نَسَمِ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
فَتَكُنْ فِي سَخِرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ

(١٠) عمد : أعمدة ، رواسي : جبالا ، أن تميد بكم : لثلا تضطرب بكم ،
بث فيها : نشر فيها ، زوج : صنف .

(١١) مبين : واضح .

(١٢) لقمان : أحد الحكماء ، وقيل هو أحد الانبياء بدليل تسمية السورة
باسمه (يونس ، هود ، يوسف ، ابراهيم ، طه ، يس ، محمد) حميد : محمود .

(١٤) وهنا على وهن : ضعفا على ضعف ، المصير : المرجع .

(١٥) أناب : رجع وتاب .

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ^(١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ^(١٧)
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ^(١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَأَصْوَاتُ الْحَمِيرِ^(١٩) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً
وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ^(٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا :
بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ
إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ^(٢١) وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ^(٢٢)

(١٦) مثقال : ثقل ووزن ، خردل : نبات صغير الحب يضرب به المثل في الصغر .

(١٧) عزم الأمور : الأمور الهامة الواجبة .

(١٨) لا تصعر خدك : لا تمله ، كما يفعل المتكبرون - والمراد : لا تتكبر ، مرحا : فرحا شديدا .

(١٩) أقصد : توسط ، اغضض : اخفض .

(٢٠) سخر : أخضع وذل ، أسبغ : أتم ، والأسباغ الاخفاضة والشمول .

(٢١) السعير : النار الملتهية .

(٢٢) يسلم : يستسلم الى الله ، الوثقى : مؤنث الأوثق بمعنى : الأحكم ،

عاقبة الأمور : مرجعها ونهايتها ، يتصرف فيها كيف يشاء .

بعض ما تشير إليه الآيات

(الآيات من ١ : ٩) — أن القرآن يدعو إلى العلم والإيمان والتعقل واليقين ، ويحث على الإحسان والجد في الحديث وترك العبث .

— أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه فمن تلقاه دون عناد ، وأقبل عليه بتقوى وإحسان وجد فيه هدى ، ووصل به إلى الفلاح ، وأدرك فيه نواحي الإعجاز ، بخلاف من عاند أو كابر أو حاول الاستهزاء به ، والاشتغال عنه بالأحاديث التافهة ، أو تغاضى ، وتشاغل عنها فلم يستمع إليها فلن يدرك جماله ولن يقرب بإعجازه .

— الإسلام يدعو إلى طهارة النفس (الذين يقيمون الصلاة) ويحرص على طهارة المال (ويؤتون الزكاة) فن طهر نفسه وماله وجد الطريق إلى اليقين ، وإلى الفلاح .

— فبشره بعذاب أليم ، تعبير لطيف جميل ؛ فكلمة « بشره » تجعل الكفار يقبلون بشغف وإصغاء فيفاجئون بوعيد عنيف يهزم « عذاب أليم » وجزاء ونعيم للؤمنين « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات نعيم » وذكر « إن » التي تفيد التوكيد ، وتقديم الخبر على المبتدأ في « لهم جنات » ، يتسق مع توجيه هذه الآية إلى الكفار لأنهم ينكرون ولا يتوقعون ما تضمنته من تعذيب لهم ، ومن نعيم للؤمنين .

الآيتان (١٠ ، ١١) تدلان على قدرة الله وجلاله : خلق السموات خلق الجبال ، والدواب ، والتكاثر في النبات ، فأثبتنا فيها من كل زوج ، كما تدلان على عظمته في ألوهية جمال المصنوع يشير إلى عظمة الخالق المبدع . . وبعد هذا كله . . كيف يعبد الكافرون غيره ١٩ إن هذا لشيء عجيب !!

وفي هذا العالم كواكب ونجوم أكبر حجماً من الأرض ، ولو تسنى لنا أن نقرب منها ، أو لو اقتربت هي منها لرأينا النسبة بين الأرض وبينها كبيرة جداً ورأيناها كجبال معلقة بين السماء والأرض دون عمد تقوم عليها ، فإذا حجبت هذا الرؤية الكاشفة رأينا السماء قائمة على الأرض كأنها السقف المرفوع .

وقد أتى صدر الآية رقم ١٠ « خلق السموات بغير عمد . . . بصيغة الماضي ، ثم أتى ختامها بصيغة المتحدث المباهى المفاخر بنفسه ، وأنزلنا من السماء ماء . . . » إشارة إلى أن التكاثر بين الأزواج فيه تعظيم وإجلال للخالق أكثر من رفع السموات بغير عمد ، وإلقاء الرواسى على الأرض حتى لا تميد .

ومن هنا أتى ختام الآية (١٠) « زوج كريم ، وختام الآية (١١) « بل الظالمون فى ضلال مبين ، ختاماً مناسباً : فى التكاثر زيادة وكرم ، وفى إنكار قدرة الله وعبادة غيره مع هذا المقدار الكبير من العظمة والقدرة ضلال أى ضلال « ضلال مبين ، !!

(الآية رقم ١٢) أنعم الله على لقمان بالحكمة ، فشكر الله فزاده الله خيراً وبركة

« ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، (١) « لئن شكرتم لأزيدنكم (٢) » ؛ فشكر الله لا ينال الله منه شيئاً فالتعظيم غنى عن العالمين ، ولكن الإنسان الشاكر هو الذى ينال كل خير . « أن أشكر لله » ، « أن » تفسيرية وفى ذلك دلالة على أن رأس الحكمة شكر الله .

(الآيات : ١٣ : ١٩) تتضمن وصايا لقمان لولده ، ووصية الله للإنسان . . .

فالأب يوصى ولده : لا تشرك بالله ، والله يوصى الإنسان أن يشكر والديه ، وتلك هى العلاقة السوية ، والصلة الطيبة بين الآباء والأبناء ، وبين الله عز وجل وعباده ، فمن الطبيعي أن يدعو الأب ولده إلى الإيمان بالله ، ومن تعظيم الله للوالدين أن أمر الأبناء بالبر للآباء ، وجعل شكرهما فى المنزلة بعد شكر الله ، أن أشكر لى ولوالديك . . . فإذا اضطربت العلاقات ، وانحرف الآباء فدعوا الأبناء إلى الشرك بالله . . . تلك مشكلة .. يضع الله أمامنا حلها الرائع « لا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ليس هناك ما يسوغ إساءة الآباء ، حتى وإن كانت هذه الإساءة من أجل تعظيم الله وعبادته إن حساب الآباء على ما ارتكبوا من إساءة للأبناء أو لغير الأبناء ليس من شأن الأبناء ، بل أمرها متروك إلى الله يجزى كلا بعمله « ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

ثم تأتى بعد ذلك وصايا لقمان لولده .

فلا اعتراض بوصية الله بين وصايا لقمان يشير إشارات لطيفة إلى ما أتى :

[أ] أن الإحسان إلى الوالدين لون من ألوان الشكر لله .

[ب] أن منزلة الوالدين عظيمة جداً عند الله .

وقوله تعالى : « وهنا عن وهن ، حال من المفعول (الهاء في حملته) وهو الجين في بطن أمه ، وفي ذلك إشارة إلى الرعاية الطبيعية التي زود الله بها الأمهات لسلامة الأجنة . أو حال من الفاعل وأمّه ، وفي ذلك إشارة إلى معاناة الأمهات في سبيل الأبناء . وسواء كان هذا أم ذاك فالعرفان بالجميل يقتضينا أن نشكر الله ونشكر الأمهات .

ومن وصايا لقمان :

(آية ١٦) « يا بني إنما إن تك مثقال حبة ... ، أي اعبد الله وأنت تعلم أنه عالم بكل شيء ، كاشف لكل شيء ، فهو اللطيف الذي ينفذ علمه وقدرته إلى كل شيء خفي ، وهو الخبير المتمكن من كل شيء ، ومن عبد الله على هذا الأساس جاءت عبادته خالصة خاشعة مقبولة عنده عز وجل .

(آية رقم ١٧) « يا بني أقم الصلاة ... ، يوصي لقمان ولده في هذه الآية :

- [أ] بإقام الصلاة : ليحسن العلاقة بينه وبين الله .
[ب] بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ليؤدي رسالته الاجتماعية .
[ح] بالصبر عند المصيبة : لأن الصبر يمد الإنسان بالعزيمة التي تجعله يقوم بالتكاليف ويؤدي ما عليه من حقوق ، « واصبروا إن الله مع الصابرين (١) ، ومن غير الصبر لا فلاح للإنسان . « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، .

(آية رقم ١٨ ، ١٩) « ولا تصغر خدك للناس ... ، يوصي لقمان ولده في

هاتين الآيتين :

- [أ] بالتواضع والاتزان في المشي ، « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ، وإن تبلغ الجبال طولا (٢) ،

- [ب] غض الصوت : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ، .

وعند تأمل هذه الوصايا نلاحظ :

١ — أن لقمان كان حريصاً كل الحرص على أن يجمل ولده من حيث الباطن (الآيات ١٣ ، ١٦ ، ١٧) ومن حيث الظاهر شكلاً وحركة ، وصوتاً (الآيتان ١٨ ، ١٩) .

(٢) سورة الاسراء آية ٣٧ .

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ .

٢ — إن لقمان كان شقيقاً بولده متودداً إليه ، يابني ، يابني ، يابني صيغة تكررت أكثر من مرة . وفي ذلك ما يجذب المتعلم نحو المعلم : فأحرى به حينئذ أن يفيد منه ، وأحرى بالاستاذ أن يفيد . فليتنا نحن المعلمين نتعلم من لقمان كيف نتعامل مع تلاميذنا .

(الآيتان رقم ٢٠ ، ٢١) : « ألم تروا أن الله سخر لكم . . . »

فيهما دعوة إلى النظر ، والتأمل الذي لا يقف عند الظاهر بل يضم إليه الباطن أيضاً ، فالتأمل والنظر ينبغي أن يتسعاً حتى يشمل السماوات والأرض : وأن يتعمقا حتى يتجاوزا الظاهر إلى الباطن ، يتأمل الإنسان السماء ، ويتأمل الأرض ويتأمل نفسه ، ويتأمل في كل ذلك الظاهر والباطن ، وبذلك يكون الإسلام قد دعا إلى العلم والاستقراء والتجريب دعوة شاملة عميقة ، ومن هنا كان ختام الآية مؤكداً بمنطوقه ما أشار إليه صدرها بمفهومه : فحرم الجدال بغير علم أو سند أو دليل ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير ، لأنه يريد الخوار المستج ، ويكره الجدال العقيم .

(الآية ٢١) : تنهى عن التقليد الأعمى ، وتدعو إلى الفسك ، والاستقلال المستنير بالرأى ؛ فكره من الكفار أن يقلدوا الآباء من غير فكر ، واعتبر تقليدهم استجابة لدعوة شيطان ، قالوا بل نأتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير . .

(الآية ٢٢) في هذه الآية لا يريد الله منا أن نسلم وجوهنا إليه أى لإسلام ، ولكنه اشترط في الذي يسلم وجهه إليه ليكون مستمسكاً بالعروة الوثقى أن يكون حسناً ، أما الذين يتواكفون ويتكاسلون ويظنون بتواكلهم هذا أنهم متوكلون على الله فقد أخطأهم الصواب . إن الله يقول : ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ، إن التواكل غير مقبول عند الله والفوز لا يكون مضموناً إلا للبحسين المجددين .

والعاقبة عند الله . . . يجزى كل إنسان بعمله .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (١) ، (٢) .

(١) سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨ .

(٢) دكتور سعد شلبي

من سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا^(١) نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ^(٢) إِذْ جَاءَتْكُمْ^(٣)
جُنُودٌ^(٤) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا^(٥) وَجُنُودًا^(٦) لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ^(٧) بَصِيرًا . إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوَائِمِكُمْ^(٨) وَمِنْ أَسْفَلِ^(٩)
مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ^(١٠) الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ^(١١)
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا^(١٢) . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا

(١) اذكروا قصة الأحزاب وهي وقعة الخندق في شهر شوال سنة خمس للهجرة .

(٢) يوم الخندق وهي نعمة على المؤمنين بعدكم .

(٣) الى المدينة .

(٤) جنود الأحزاب في نحو ١٢ ألفا ولم يكن مع الرسول سوى ثلاثة آلاف

خيهم المنافقون والذين في قلوبهم مرض .

(٥) عاصفة في ليل مظلمة باردة .

(٦) من الملائكة .

(٧) من حفر الخندق والتأهب للقتال .

(٨) من أعلى الوادي من جهة المشرق .

(٩) من أسفل الوادي من قبل المغرب .

(١٠) انحرفت عن مستوى نظرها ولم تستقر على حال خوفا ورعبا .

(١١) وظيفة القلب أن يمد الجسم بالحياة ، وهذا مبالغة في بيان ما هم فيه

من فزع .

(١٢) تظنون بالله تعالى الذي وعدكم النصر الظنون الكثيرة لأن هول الموقف

أنساكم ما وعد ربكم . وقوله (الظنون) يرسم بالألف ويوقف عليه بالألف ،

وتحذف ألفه وصلا .

شَدِيدًا^(١٣) . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ^(١٤) وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ^(١٥)
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^(١٦) . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ^(١٧) يَا أَهْلَ
يَثْرِبَ^(١٨) لَا مَقَامَ^(١٩) لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ^(٢٠) وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ^(٢١) إِنْ
يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْطَارِهَا^(٢٢) سُمْ سُيُلُوا
الْفِتْنَةَ^(٢٣) لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَابَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا^(٢٤) . وَلَقَدْ كَانُوا
عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ^(٢٥) لَا يُؤْتُونَ الْأَذْبَارَ^(٢٦) وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ
مَسْئُولًا . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ
وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ^(٢٧) مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ

(١٣) اضطربوا اضطراباً شديداً .

(١٤) الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

(١٥) ضعف إيمان لحدائث عهدهم بالإسلام .

(١٦) باطلاً .

(١٧) من المنافقين .

(١٨) الأندنية ومن أسمائها طيبة .

(١٩) إغاثتكم في هذا الميدان خطر عليكم .

(٢٠) ظاهرة غير محصنة .

(٢١) لأن الخندق محيط بها وعليها عسكر المسلمين .

(٢٢) دخلها عليهم الأعداء من جميع جوانبها .

(٢٣) قتال الرسول وأصحابه .

(٢٤) ما صبروا على إجابة الداعي لحرب الله ورسوله وما استمروا بهذه

البيوت إلا قدر ما يحملون سلاحهم ويخرجون لقتال النبي معهم .

(٢٥) قبل غزوة الأحزاب .

(٢٦) لا يفرون مدبرين جبناً وانهباً .

(٢٧) يا رسول الله قل لهؤلاء المنافقين الغارين .

الله إن إرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ^(٢٨) لَهُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ^(٢٩) اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ^(٣٠)
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ^(٣١) ، هَلُمُّ^(٣٢) إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ^(٣٣)
إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً^(٣٤) عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ^(٣٥) رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ^(٣٦) كَالَّذِي يُغْفِشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا
ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ^(٣٧) بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ^(٣٨)
أُولَئِكَ لَمْ يُوْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ^(٣٩) عَلَى اللَّهِ

- (٢٨) التفت من الخطاب إلى الغيبة ومقتضى الظاهر أن يقال (ولا تجدون)
وذلك لأنهم في غيبة وغفلة فهم غير جديرين بالخطاب .
(٢٩) أتى بحرف التحقيق لأنه يخاطب قوما في اضطراب وفتنة وعبر =
بالمضارع في (يعلم) ما يقع منهم .
(٣٠) الذين يمنعون الناس من نصره الرسول . وهم المنافقون واليهود .
(٣١) لأصحابهم وعشائرتهم .
(٣٢) هلم اسم فعل أمر بمعنى أقبل . أي تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة
في الضلال .
(٣٣) القتال والحرب .
(٣٤) جمع شحيح ، أي ييخلون عليكم أيها المؤمنون بالنفقة والنصرة والاعانة
عند بدء القتال .
(٣٥) قامت الحرب .
(٣٦) تدور الأحداق في الأعين فهو مجاز مرسل علاقة المحلية أطلق المحل
وأراد الحال ، وهذا الدوران من الهلع والجبن .
(٣٧) يغيب ويكون في سكرة .
(٣٨) طعنوا فيكم .
(٣٩) على أخذ الخير وهو الغنيمة .
(٤٠) الذي تقدم كله من نصر المؤمنين على قتلهم وخذلان المشركين على
كثرتهم .

يَسِيرًا . يَخْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا^(٤١) ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ^(٤٢)
يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ^(٤٣) فِي الْأَغْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ^(٤٤)
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ^(٤٥) مَا فَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا^(٤٦) . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي
رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ^(٤٧) الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَلَدُمْ إِلَّا
إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا .
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ^(٤٨) ، إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا^(٤٩) بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

(٤١) عن المدينة .

(٤٢) لحصار المدينة وقاتل المؤمنين .

(٤٣) خارجون من المدينة الى البادية حينما عن الحرب .

(٤٤) لينحازوا الى الظافرين في النهاية وعند القاء السلاح .

(٤٥) أي لم ينصرفوا الى المدينة .

(٤٦) دفعوا للوم ورياء للمسلمين .

(٤٧) المخلصون الصادقون .

(٤٨) ترغيبا للمؤمنين وتحذيرا للمنافقين .

(٤٩) وهم الأحزاب من قريش ومن تأمرهم وجاء معهم لغزو المدينة .

وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ^(٥٠) مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ صَيِّاصِيهِمْ^(٥١) ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقًا
تَهْتَلُونَ وَتَأْمُرُونَ فَرِيقًا ، وَأُورَثَكُمْ^(٥٢) أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ^(٥٣)
وَأَرْضًا لَمْ تَطَّئُوهَا^(٥٤) . وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

بعض ما تشير إليه الآيات

نزلت هذه الآيات في غزوة الأحزاب، وهي غزوة الخندق التي حدثت في شهر
شوال من السنة الخامسة للهجرة .

وسببها أن النبي ﷺ ذهب في دية إلى بني النضير ، وهم عشيرة من اليهود ،
فأجمعوا أمرهم على الغدر به وقتله ، وصعد أحدهم على سطح منزل كان الرسول يجلس
تحت جداره وفي ظله ليلتي عليه حجرا فيقتله ، وحين أحس الرسول بذلك قام مسرعاً
وجمع أعوانه لغزو بني النضير . فنصره الله عليهم وأجلاهم عن المدينة . فغضبوا لذلك
وذهب زعماءهم إلى مكة لتحريض القرشيين على حرب النبي وأتباعه . ففرحت قريش
بذلك . ثم ذهب الوفد اليهودي إلى قبيلة غطفان وأعلموهم بمخالفة قريش ، وجعلوا
لهم تمر خبير مدة سنة إن هم ناصرهم . وكانت نتيجة هذه المساعي أن تجمعت قبيلتنا
قريش وغطفان ومعهم اليهود في جيش بلغت عدته نحو اثني عشر ألفاً بمعداتهم على
رأسه أبو سفيان بن حرب .

(٥٠) ناصرهم بانتفاضهم على النبي وهم اليهود من بني قريظة .

(٥١) حصونهم ومعقلهم .

(٥٢) المراد بالأرض المزارع وبالديار الحصون والأموال النقود والمناشية
والآثاث .

(٥٣) قيل انها أرض خبير ، وقيل ان هذا وعد للمسلمين بكل أرض
يفتحونها .

وحين علم الرسول بذلك دعا قومه وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر ، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق في موضع المخافة من سور المدينة ، وقد شارك النبي مع المسلمين في حفره . وحمل التراب على ظهره ، وهكذا أخذ العمل صورة جماعية رائعة ، فكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يحملان التراب في أيهما لمدم توغر المكائيل (المقاطف) ، وكان إذا احتاج أحد العاملين لحاجة استأذن الرسول في قضائها ، ثم يعود فيستأنف العمل ، وقد لوحظ أن المنافقين كانوا يتباطئون ويخذلون غيرهم بغية تخريب العمل الذي أمر به الرسول .

وقد استمر العمل هكذا أكثر من عشرين يوماً ، إلى أن بان الأحزاب بظاهر المدينة في اثني عشر ألفاً بعدتهم وتتادهم ، بينما لم يزد عدد المسلمين عن ثلاثة آلاف عسكر بهم الرسول في سفتح جبل يطل على المدينة بحيث جعل ظهر جيشه إلى الجبل ، وجعل الخندق بيته وبين العدو ، وفي نفس الوقت عقد عهداً مع بني قريظة اليهود داخل المدينة وحولها أن يلزموا السكينة ، وألا يقوموا بعمل فيه إضرار بالمجبود الحربى الإسلامى .

مضت مدة ليس بين الفريقين إلا الرمي بالنبل والحجارة ، وبعض المبارزات الفردية ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد نقضت قبيلة قريظة عهداً مع النبي في هذا الوقت المصيب هنا اشتد الأمر على المسلمين وخيف على من في المدينة من النساء والأطفال ، فأرسل الرسول قسماً من جيشه لحمايتهم ، ولهذا اضطربت النفوس ، وزاغت الأبصار ، وأرجف المنافقون وما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وحين اشتدت الأزمة هكذا . أراد ربك الانتقام من الظالمين المعتدين وهزيمة المشركين . فأرسل عليهم ريحاً عاصفة في ليل مظلمة باردة قوضت خيامهم ، وكفأت قدورهم فوق الرعب في قلوبهم ، وولوا الأدبار يتقدمهم أبو سفيان وكنى الله المؤمنين القتال .

ولما انتهى أمر الأحزاب بالصورة المذكورة أخذ القرآن الكريم يتحدث عن أخبار الذين نقضوا عهدهم مع الرسول وقت المحنة . وظهروا المشركين أثناء الحصار وهم اليهود من بني قريظة . ففزاهم الرسول وانتصر عليهم . فقتل بعضهم وأسرى الآخرين ، وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم .

ونستطيع بعد هذا العرض السريع أن نلح مايلي :

١ - في أثناء الحرب تنكشف في المجتمع - أي مجتمع - أمور كانت مستترة قبل الحرب . ففي المدينة زمن غزوة الخندق وجدنا المجتمع يتكون من : طبقة المؤمنين الصادقين المخلصين وهم الكثرة الغالبة ، وطبقة المسلمين في الظاهر دون الباطن وهم المنافقون ، وطبقة ثالثة حاقدة وهي طبقة اليهود ، وقد استطاع الرسول معتمداً على الطبقة الأولى بعد الله أن يفتصر على الأعداء .

كما أن من وسائل النصر على الأعداء . إعداد العدة ، واتخاذ الخيطة والعمل بكل تدبير وحكمة ، مع المثابرة والثبات واستخدام الحكمة والحديعة ، كل ذلك يقود المجاهدين الصادقين إلى النصر المؤزر ، ويصيب المعتدين الآئمين بالخذلان المبين .

والشدائد دائماً تظهر النفوس على حقيقتها ، فيستبين المؤمن الصادق من المنافق المراءوغ ، فلا يزداد المؤمن إلا إيماناً وتثبيتاً . أما المنافق فيكيد في تناب .

وأخيراً لا نصر ولا نجاح بدون مشقة أو تعب ، وعمل دائم ، ورضا بالمكاره والخطوب .

من سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ (١) شَىْءٌ عَظِيمٌ .
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ
حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ
اللَّهِ شَدِيدٌ .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ
مَّرِيدٍ (٢) ، كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّ وَيَهْدِيهِ إِلَى
عَذَابِ السَّمِيرِ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ . فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ (٣) ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ (٤) مُّخَلَّقَةٍ
وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّبُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَلْمَعُوا أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن
يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ
عِلْمِ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

(١) زلزلة الساعة : ما يصحب يوم القيامة من هزات عنيفة .

(٢) مرید : متمرد .

(٣) علقة : قطعة جامدة من الدم .

(٤) مضغة : قطعة من اللحم بمقدار ما يمضغه الانسان .

وَرَبَّتْ وَأُنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِتَغْيِيرِ عِلْمِهِ وَلَا هُدَى وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ . ثَانِي عَطْفِهِ ^(٥) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ
اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّبِعُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ^(٦) فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ
اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ
ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ
وَلَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ . يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ
مِنَ نَفْسِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَ لَيْسَ الْعَشِيرُ ^(٧) .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَحَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ
يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ
لْيَقْطَعْ فَلْيَنْتَظِرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ . وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ .

(٥) أى متكبر . (٦) أى من غير ثبات فى الايمان . (٧) الصاحب .

خطبة أبي حمزة الشاري

تمهيد : أبو حمزة الشاري هو أحد زعماء الخوارج في أواخر عصر بني أمية استولى على الحجاز وجاء إلى مكة على رأس جيش من الخوارج سنة ١٢٩ هـ وقتل عند مكة بعدها بعام تقريباً . وكان أصحابه يرفعون العلم السود على رؤوس الرماح فأفزعوا الناس وكره والى مكة من قبل الأمويين قتالهم في مكة لحرمتها ، فأخلاها لهم ، ودخلوها بغير قتال ، وخطب فيها أبو حمزة خطبته الآتية ، وكان قد بلغه أن أهل مكة ينتقصون أصحابه ، ويعيبون عليهم حداثة سنهم وخفة عقولهم .

النص

« يَا أَهْلَ مَكَّةَ : لَا تُعَيِّرُونِي بِأَصْحَابِي ، تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَبَابٌ ، وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا شَبَابًا ، شَبَابٌ وَاللَّهِ مُكْتَهَلُونَ ^(١) : عَمِيَّةٌ ^(٢) عَنِ الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ بِطَيْئَةٍ عَنِ الْبَاطِلِ أَرْجُلُهُمْ .

قَدْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي آتَاءِ اللَّيْلِ ^(٣) ، مُنْتَنِيَةً أَصْلَابُهُمْ ^(٤) عِثَانِي ^(٥) الْقُرْآنِ ، إِذَا مَرَّ أَحَدُهُمْ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ بَكَى شَوْقًا إِلَيْهَا ،

-
- (١) مكتهلون : من اكتهل الرجل أي صار كهلا وهو من كانت سنه بين الثلاثين والخمسين ، يريد أن لهم من الرزانة وسداد الرأي والصلاح ما لنكهل
(٢) عمية : العمى : الأعمى ، والمراد انهم يعرضون عن الشر .
(٣) آتاء الليل : ساعات الليل .
(٤) الأصلاب : جمع صلب وهو عمود الظهر ، والمراد ظهورهم .
(٥) المراد بالثاني هنا : جميع القرآن ، ويسمى جميع القرآن مثاني لاقتران آية الرحمة بآية العذاب .

وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ شَبِقَ شَهْقَةً^(٦) كَأَنَّ زَفِيرَ^(٧) جَهَنَّمَ
فِي أُذُنَيْهِ . قَدْ وَصَلُوا كِلَالَ^(٨) لَيْلِهِمْ بِكِلَالِ نَهَارِهِمْ ، أَنْضَاءُ^(٩)
عِبَادِهِ ، قَدْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ جِبَاهَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَرُكْبَتَهُمْ ، مُصْفَرَّةٌ
أَلْوَانُهُمْ ، وَقَاحِلَةٌ أَجْسَامُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الصِّيَامِ وَطُولِ الْقِيَامِ ،
مُتَّقِلُونَ^(١٠) لِذَلِكَ فِي جَنبِ اللَّهِ^(١١) ، مُؤَفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ مُسْتَنْجِزُونَ^(١٢)
لِوَعْدِ اللَّهِ .

إِذَا رَأَوْا سِهَامَ الْعَدُوِّ فُوقَتْ^(١٣) ، وَرِمَاحَهُ قَدْ أَشْرَعَتْ^(١٤) ،
وَسُيُوفُهُ قَدْ انْتَضَيْتْ^(١٥) وَبَرَقَتْ الْكَتِيبَةُ ، وَرَعَدَتْ^(١٦) بِصَوَاعِقِ
الْمَوْتِ - اسْتَهَانُوا بِوَعِيدِ الْكَتِيبَةِ لِوَعْدِ اللَّهِ - فَمَضَى الشَّابُّ
مِنْهُمْ قَدَمَا حَتَّى تَخْتَلِفُ رِجْلَاهُ عَلَى عُنُقِ فَرَسِهِ ، قَدْ رَمَلَتْ^(١٧)

-
- (٦) الشهقة : تردد البكاء في الصدر .
 - (٧) الزفير : صوت النار .
 - (٨) الكلال : التعب يريد أنهم دائبون على العبادة لا يستريحون .
 - (٩) انضاء : جمع نضو بكسر النون . وهو الهزيل المتعب .
 - (١٠) مستقلون : يعدونه قليلا .
 - (١١) جنب الله : حق الله ، والمراد طاعته .
 - (١٢) مستنجزون : طالبون تحقيق ما وعد الله به عباده المتقين من المغفرة والثواب .
 - (١٣) فوقت : ركبت في الأقواس للرماية .
 - (١٤) أشرعت : سددت وصوبت .
 - (١٥) انتضيت : استلقت من أعماقها .
 - (١٦) برقت الكتيبة ورعدت : أعد جيش العدو عدته للهجوم والقتال .
 - (١٧) رملت : لطمخت .

تَحَاسِنُ وَجْهِهِ بِالدَّمَاءِ ، وَهَفَرَ جَبْهَتَهُ بِالثَّرَى ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ سِبَاغُ
الْأَرْضِ ، وَأَنْحَطَّتْ عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ . فَكَمَ مِنْ مُقَلَّةٍ ^(١٨) فِي مِنتَقَارِ
طَائِرٍ ، طَالَمَا بَكَى صَاحِبُهَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَكَمَ مِنْ كَفٍّ بَاتَتْ ^(١٩)
عَنْ مَعْصِمِهَا طَالَمَا اعْتَمَدَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فِي سُجُودِهِ ، وَكَمَ مِنْ خَدٍّ
عَثِيقٍ وَجِيهِ رَقِيقٍ ، قَدْ فَلَقَ بِعُمْدِ الْحَدِيدِ .
رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى تِلْكَ الْأَبْدَانِ ، وَأَدْخَلَ أَرْوَاحَهَا فِي الْجِنَانِ .

التعليق

يبين لهم إقبالهم المخلص على عبادة الله سبحانه وتعالى ، وانحناءهم الخاشعة
في إثناء الليل بتلاوة القرآن الكريم ، وتطلعمهم في شوق إلى الجنة ، وخشيتهم الوجلة
من لقع النار ، ومداومتهم على العبادة في غير رفق بأنفسهم حتى نالت الأرض من
جباههم وأيديهم وركبهم من طول الركوع والسجود ، وشجبت ألوانهم وهزلت
أجسامهم ، وهم مع ذلك كله يستصغرون ما يبذلون في سبيل الله ثم يصور تهاقتهم
على الاستشهاد في سبيل الله ، فإذا ما زادت المعركة وسددت السهام ، وأشرعت
الرماح ، واستلت السيوف من أعنابها ، لم يتراجعوا ، واقتحموا غمار المعركة
غير حافلين بما يصيبهم في سبيل الله . فقد يموت الواحد منهم على ظهر حصانه ، وهو
متشبث به إلى آخر لحظة في حياته ، وقد يخرج من فوق جواده ، فيتمرغ جسده
الظاهر في التراب ، وتهوى إليه الوحوش والطيور تنهش من جسده ، فتصبح عينه
في منتقار طائر ، أو تنفصل كفه في فم وحش ، أو يحطم رأسه بعمد حديد .

(١٨) المقلة : العين .

(١٩) باتت : اتصلت وبعدت .

(٢٠) عثيق : كريم النسب .

من قصيدة كعب بن زهير

يوم أسلم يمدح الرسول

تمهيد : الشاعر : هو كعب بن زهير بن أبي سلمى . . من أسرة شاعرة أجادت الشعر ، وجودته ، وعرفت بالحكمة والاعتزان .

أسلم ومدح الرسول بهذه القصيدة . . يقال : إنه توفي سنة ٢٤ هـ . تلقى الشعر عن أبيه مثله في ذلك مثل أخيه و بغيره .

وكان زهير ، يعلم أبناءه وأقاربه شعر الجاهلين يحفظهم إياه حتى تظهر مواهبهم الشعرية .

وقالوا عن كعب إن والده كان يلقي عليه الشعر والبيت ويطلب منه أن يكمله . . ويعبد كعب أشهر من أخويه ، الحطيئة و بغيره ، وكلهم قد أدرك الإسلام وأسلم ، غير أن بغيراً كان أسبقهم إليه . .

فتح الرسول ﷺ مكة ، ففر عدد من الشعراء واستكبر أن يدخل في دين الله ، وأبى أن يسلم مع الأفواج التي دخلت الإسلام يومذاك أما بغير فقد أسلم ، وأما كعب فقد أبى وأخذ يهجو الرسول ، ويلوم أخاه . . وكان بما قال لأخيه :

ألا أبلغا عنى بغيراً رسالة فهل لك فيما قات - ويحك - هل لك

شربت مع المأمون (١) كأساروية فأنهلك المأمون منها وعلك

وخالفت أسباب الهوى وتبعته على أى شئ - ويب غيرك (٢) - دلك

على خلق لم تلف أباً ولا أباً عليه ولم تدرك عليه أخاً لسك

وهكذا أخذ يلوم أخاه ، ويهجو الرسول ، ويهجو عامة الصحابة ، فتوعده الرسول ، وأباح دمه . وحرص كثير من الصحابة على قتله .

(١) المأمون : يريد الرسول .

(٢) ويب غيرك : هلكك هلاك غيرك .

أشفق بجير على أخيه أن يهدر دمه ، وعز عليه أن يظل كافراً فكتب إليه :
من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلى الله ، لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمقلت من النار إلا طاهر القلب مسلم
فشرح الله صدر كعب للإسلام ، فتنكر ، ودخل المدينة في غبش الظلام ،
وقبل أن يتنفس الصباح توجه إلى المسجد ، وانتظر حتى انتهى الرسول من صلاة
الصبح فقدم إليه وبسط يده له قائلاً :

رجل جاءك يبأيك على الإسلام ، فبسط النبي يده إليه ، فكشف كعب القناع
عن وجهه وقال : هذا القائم المأذ بك يا رسول الله أنا كعب بن زهير ، فتهجم عليه
بعض الصحابة خاصة الأنصار ، ولكن الرسول أمنه ، فاطمأن وأنشد بين يديه
هذه القصيدة :

النص

بانت^(١) سعاد فقلبي اليوم متبول^(٢) مقيم^(٣) عندها لم يجرز مكبول^(٤)
ومما سعاد غداة البين إذ برزت
إلا أغن^(٥) غصبيض الطرف مكحول^(٦)
تجلو^(٧) عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلول

(١) بانت : فارقت ، متبول : اسقمه الحب ، مكبول : مقيد .
(٢) الأغن : ما في صوته غنة .
(٣) تجلو : تكشف ، العوارض : الأسنان ، الظلم : ماء الأسنان وبريقها ،
الراح : الحمر ، معلول : مسقى .

أَكْرَمَ بِهَا خَلَّةً^(٤) لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ
لَكِنَّهَا خَلَّةٌ قَدْ سَيِّطَ^(٥) مِنْ دَمِهَا
فَمَا تَقُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا
وَلَا تَمْسُكُ بِالْمَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ
كَانَتْ مَوَاعِيدُهُمْ قُوبٍ^(٦) لَهَا مَثَلًا
أَرْجُو وَأَمِلُ أَنْ تَذَنُورَ مَوَدَّتِهَا
فَلَا يَغْفِرُ نِكَامًا مَنَّمْتَ وَمَا وَعَدْتِ
بِوَعْدِهَا وَلَوْ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ
فَجَمْعٌ وَوَلَعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ
كَمَا تَلَوْنَ فِي أَمْثَابِهَا النُّوُكُ
إِلَّا كَمَا يُنْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ
وَمَا مَوَاعِيدُهُ إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
وَمَا إِخَالُكَ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ
إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ

* * *

نُبِّئْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
مَهْلَاهُ الَّذِي أُعْطَاكَ نَافِلَةً^(٧) أَلَا
لَا تَأْخُذْنِي بِأَنْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ
لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ
لَطَالَ تَرَعَدَ مِنْ وَجْدٍ بِوَادِرِهِ^(٨)
مَازَلْتُ أَقْتَطِعُ الْبَيْدَاءَ مُدْرِعًا^(٩)
وَالْعَفْوَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مُرَّانٍ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
أَذِيبٌ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَفَاوِيلُ
يَرَى وَيَسْمَعُ مَا قَدْ أَسْمَعَ الْفَيْلُ
إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْوِيلُ
جُنْحُ الظَّلَامِ وَثَوْبِ اللَّيْلِ مَسْبُولُ

(٤) خله : صديقه .

(٥) سيط : خلط ، الولع : الكذب .

(٦) عرقوب : يضرب به المثل في خلف البرعد .

(٧) نافلة القرآن : عطية القرآن .

(٨) بوادره : جمع بادرة : ما بين المنكب والعنق .

(٩) مدرعا ثوب الظلام : لبس الظلام كأنه درع .

حَتَّى وَصَفْتُ يَمِينِي مَا أَنَا زِعْمًا
فَلَهُمْ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذَا كَلَّمَهُ
مَنْ ضَيِّقُ بَصِيرَاهُ الْأَرْضَ^(١٢) مُخَدَّرُهُ
يَعْدُو وَيَلْحَمُ^(١٣) ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا
إِذَا يَسَاوَرُ^(١٤) قِرْنَا لَا يَحِلُّ لَهُ
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ
زَأْوًا فَازَالَ أَنْكَارُ وَلَا كَشْفُ^(١٦)
شَمِّ^(١٧) الْعِرَانِينَ أَبْطَالَ لَبُوسَهُمْ
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ
لَا يَقَعُ الطَّمَنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ

فِي كَيْفِ ذِي تَقِمَاتٍ قَوْلُهُ الْقَيْلُ^(١٠)
وَقِيلَ: إِنَّكَ مَنْسُوبٌ^(١١) وَمَسْتَوْلٌ
فِي بَطْنِ عَشْرِ غَيْلٍ دُونَهُ غَيْلٌ
لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلٌ
أَنْ يَتْرَكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَغْلُولٌ
مُهْتَدٍ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زَوْلُوا^(١٥)
عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا يَمِيلُ مَعَاذِيلُ
مَنْ تَسَجَّ دَاوُدُ فِي الْهَيْجَا سَرَايِلُ
قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَارِيعًا إِذَا نِيلُوا
وَلَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ^(١٨)

(١٠) قوله القيل : قوله الحق .

(١١) منسوب : مستول عن نسبك .

(١٢) ضراء الأرض : الأرض المستوية التي تأويها السباع وبها بعض الشجر ، مخدرة : مكان أقامته ، بطن عشر : مأسدة ، الغيل : الأجمة يصف الأسد بالمتعة والتوحش .

(١٣) يلحم : يأكل لحم ، معفور : هلقى في التراب ، الخراديل : المقطع .

(١٤) يساور : يواكب ، القرن : المماثل .

(١٥) زولوا : هاجروا .

(١٦) التلكس : الضعيف ، الكشف : جمع أكشف وهو من لا ترس له والميل : جمع أميل وهو لا سيف له ، أو من لا يحسن الركوب ، والمعاذيل : جمع معزول ، وهو من لا سلاح له .

(١٧) شم العرانيين : شم الأنوف : أعزه ، السراييل : الدروع .

(١٨) التهليل : الجبن ، والفرار .

التعليق

يدير كعب قصيدته على عدة محاور تناولت هذه الأبيات ثلاثة منها :
المحور الأول (١ - ١٠) : وقد أتى في مطلع القصيدة سائراً على النهج الذي
الذي انتهجته عامة الشعراء في العصر الجاهلي ، وعلى رأسهم أبو ذؤيب ، وصار
تقليداً في أدبنا العربي ، افتتاح القصيدة بالغزل ، أو التشبيب : وهو أنواع :

[أ] ذكر صفات المحب من الشغف والنحول ومن الحزن والآرق :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول مقيم عندها لم يحجز مكبول
[ب] ذكر صفات المحب الحسية والحلقية والنفسية كرشاقة القد وحمور العين ،
وكالحياء والوقار ، ونحو ذلك من الصفات الحسية والمعنوية ، ومنه قول كعب :

وما سعاد غداة البين البيت

[ج] ومنه ما يربط بين المحب والمحبوب كالصد والهجر ، والوصل والخلاف

الوعد ، وإلى شيء من ذلك يشير كعب بقوله في الأبيات (٤ - ٨)

أكرم بها خلة لو أنها صدقت بوعدها الأبيات

ومن هذا المحور يتراءى لنا إفادة كعب من والده زهير فيأخذ معنى قوله :

وفارقتك برهن لا فسكك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقاً (١)

في قوله : بانت سعاد .

كإقيد من الأمثال الشائعة في بيئته . من ذلك قوله :

و كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً ،

وعرقوب داسم رجل مشهور بإخلاف الوعد ، حتى ضربوا به المثل فقالوا « أخلف

من عرقوب » ، وتداولته العرب في أشعارهم قال شاعرهم :

وعدت كأن الخلف فيك سجية مواعيد عرقوب أخاه ييثرب :

(١) غلق الرهن : لم ينفك أبداً .

وذلك لانه وعد أخاه: يثرب ثمر نخلة وقال له : ائتني إذا أطلع ، فلما أطلع قال :
إذا أبلح ، فلما أبلح قال : إذا أزهى فلما أزهى قال : إذا أرطب ، فلما أرطب قال :
إذا صار تمرآ ، فلما أتمر جزه ليلا ولم يعطه شيئاً .

هذا الغزل الذي جاء بين يدي القصيدة متبعاً سنة الشعراء قبله مشيراً في نفسه
لفعال الشعر ، جاذباً به انتباه سامعيه . هذا الغزل تترامى فيه سمات فنية نعد منها :

— إعجاب به الشديد بمن أحب ، وافتتانه حسياً ومعنوياً .

— تلهفه على رضاها ، وخوفه من تنكرها ، وتهالكه على مودته .

— تحذيره من الخضوع لها ، والاستسلام لآمانيتها . . .

فن سعاد هذه ؟ وكيف يصفها على مرأى ومشهد من الصحابة ، وفي مواجهة
الرسول ؟

إن الصحابة لم يحتجوا ، والرسول قد طرب لقصيده . ولم يأخذ عليه أحد هذا الإعجاب .
ولا ذلك الطرب .

وهذا تقدير للفن الأدبي من الرسول ، ومن صحابته ، وهذه لباقة وبراعة من
كعب . فإن هذه المعاني التي يتناولها في محبوبته هي نفس المعاني أو نفس العواطف
التي تعمل في نفسه لإزاء رسول الله وإشفاقه من غضبه ، وتمنيه وصله ، وعفوه ،
ومن قبل ذلك حبه للرسول واستسلامه له . . . ولكن هل نقلت من وعيد الصحابة
إن قلبه يدفع إلى لسانه .

« أرجو وآمل أن تدنو مودتها . . . »

وهو اجسه تشير أحزانه فيقول : « فلا يفرئك ما منت وما وعدت . . . »

المحور الثاني : (١١ - ٢٢) وهو العنصر الاساسي في القصيدة والهدف

الذي من أجله أُنشئت ، إنه يستعطف فيه الرسول ، ويرجو عفوه ويستشفع إليه
بالكتاب الكريم ويهيب به ألا يستمع لوأش ، ويتقرب إليه بما أصابه من خوف
وفزع عندما علم بتهديد الرسول لإياه ، إنه فزع أجل من أن يحتمل ، وخوف دونه
همة كعب بل إنه الآن ليقف بين يديه (عليه الصلاة والسلام) موقفاً لووقفه فيل لظلال

ترعد من وجد بوادره فكيف بكعب ، وهو الإنسان الرقيق القلب المرهف
الشعور ١١٩

إنه مستسلم ولكن في إشفاق ، مائل أمامه ولكن في فزع ، إنه من رسول الله
كالإنسان أمام أسد كاسر أو ضرغام هائج أو وحش فأتك ، هذا وجه من الشعور
أما الوجه الآخر فيمثله قوله : « العفو عند رسول الله مأمول » ، « مهلا هداك الذي
أعطاك نافلة القرآن » ، وفيها قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف » وأخيراً يركز
هذين الوجهين في صورة نوروسيف ، وقد رأى النور فاهتدى به بعد ضلال كاهتدى
الضال بنار القرى ، ورأى السيف فرجا العفو والصفح .

إن الرسول لنور يستضاء به مهتد من سيوف الله مسلول

ولكن ما بال كعب ، وهو العربي الأصيل — يحنج إلى المبالغة والتحويل فيتصور
الرسول أشد رهبة وأعنف شكيمة يرعد أمامه الفيل ، وهو أسد كاسر ينال ، ولا يتال منه
ويفتك ولا يفتك به ١١٩

أ كان كعب صادقاً في ذلك أم كان معرضاً بعدديد من أقرانه العرب الذين توعدوه
فاستهان بوعيدهم بطريقته الخاصة ١٩

سواء كان هذا أم ذاك فإن لكل اتجاه ما يؤيده من القصيدة نفسها . فإن
كعباً لم يمس الرسول ، بل احتفل به وبكتابه الذي جاء به من عند الله وبمباته .

وفي الوقت نفسه تحامل على الانتصار وهجاء صراحة في أبيات لم نشأ أن
تذكرها . وحفظ في الوقت نفسه يد المهاجرين عليه فقد كان لهم دور في عفو الرسول
عنه ، فذكر لهم هذه العارفة في الأبيات التي تضمنها المحور الثالث ١١

المحور الثالث : (٢٣ ، ٢٧) أثنى على المهاجرين فذكر معنى كثيراً ما يخفى على

المؤرخين فيظنون أن الرسول وأصحابه تركوا مكة رهبة من قريش ، أو فراراً من
العذاب ، ولم يعلموا الحقيقة التي أشار إليها كعب ، وهو المعاصر لهذا الحدث الكبير
الهجرة من مكة إلى المدينة .

— لقد كان استجابة للرسول فلولم يقل لهم هاجروا ما هاجروا ، وإنما إذا هاجروا
كأبوا الأقرباء ولم يكونوا الضعفاء .

زالوا فزال انكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
وكانوا المعتدين بأنفسهم وبطولتهم ؛ وعدتهم وعتادهم .
شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سراويل
وهم الأجزاء على أى حال لا يفرهم النصر ولا نظمهم الهزيمة .
لبسوا مقاريح إن نالت رماحهم قرماً وليسوا مجازيعاً إذا نسلوا

* * *

وهكذا يقدم كعب لحديثه بين يدي الرسول وأصحابه بما يجذب انتباههم ثم يراعى
في كلامه مقتضى الحال فيذكر من المقصال ما يتسق مع المقام فيخص كل فريق استمع
إليه بكلمة يحدثه فيها فيستولى على أذهان السامعين جميعاً ، دون أن يحتفل بفريق
دون فريق .

وكاننا بكعب ، وقد انتهى من قصيدة قد انفتح له قلب الرسول فدخل إليه ، وكان
في الوقت نفسه موضع اهتمام من الصحابة جميعاً ، المهاجرين منهم والأنصار .
أما الرسول فقد خلع عليه برده ، وقد اشتراها معاوية من أبناء كعب بعشرين
ألف درهم ؛ وكان يلبسها الخلفاء في العيدين ، ومن أجل ذلك لقبته هذه القصيدة
« بالبردة » .

أما المهاجرون من قريش فقد أعجبوا به وسألوا الرسول أن يعفو عنه ولكنهم
في الوقت نفسه لاموه على هجاء الأنصار وقالوا له : « لم تمدحنا إذ هجرتهم »
أما الأنصار فقد كانوا أكرم وأنبل . لقد صفحوا عنه وفرحوا بإسلامه فذكرهم
كعب بالثناء فقال :

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب (١) من صالحى الأنصار
ورثوا السيادة كابرا عن كابر إن الكرام هم بنو الأخيار (٥)

(١) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٥) دكتور سعد شلبي

شجاعة وحماسة

لقطري بن الفجاءة

تمهيد: قطري بن الفجاءة المازني شاعر وخطيب من زعماء الخوارج وقد خاض حروباً طويلة مع الأمويين حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩ هـ. وفي النص التالي يعرض لنا صورة حية قوية تفيض بالشجاعة والحماسة.

النص

أَقُولُ لَهَا^(١) وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحِكُ لَنْ تُرَاعَى
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعَى
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ يُسْتَطَاعُ
وَلَا ثَوْبَ الْبِقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْبِرَاعِ^(٢)
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةٌ كُلُّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعٍ
وَمَنْ لَا يُعْتَبَطُ^(٣) يُسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسَلِّهُ الْمُنُونَ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَاقٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ^(٤) الْمَتَاعِ

- (١) لها : أي لنفسه ، طارت شعاعا : تبددت من الخوف ، تراعى : تفرغى .
(٢) الخنع : يفتح الحاء اللين ، اليراع : الجبان .
(٣) يعتبط : يموت شابا .
(٤) سقط المتاع : شيء تافه .

من صور الوفاء الأخوى

لمتم بن نويرة

تمهيد : صورة لوفاء أخ لآخيه، وكيف تنفجر فيه أنهار الحزن باكية شاحبة من قلب « متم بن نويرة » لتسيل شعراً فاجماً على أخيه « مالك بن نويرة » ، ولم يعرف عن « متم » ، قول الشعر قبل مقتل مالك (فبأيها الحزن المقدس كيف انبجست للشعر من حريقك اللاهف هذه الآلام التي تجسدت أحياناً حزينة تبيكي مالكا) وقد كان سيداً نبيلاً وزعيماً مهاباً .

النص

لَعَمْرِي ، وَمَا دَهْرِي بِتَأْيِينِ مَالِكٍ وَلَا جَزَعٍ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعًا^(١)
لَيْبٍ أَعَانَ اللَّبَّ مِنْهُ مَمَاحَةً

خَصِيبٌ إِذَا مَارَا كِبُ الْجُدْبِ أَوْضَمًا^(٢)

أَغْرُهُ كَنَصْلِ السَّيْفِ يَهْتَرُ لِلنَّدَى إِذَا لَمْ يَجِدْ عِنْدَ امْرِئٍ وَالشُّوهُ مَطْمَعًا
وَمَا كَانَ وَقَافًا إِذَا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ أَخَا الْحَرْبِ صِدْقًا فِي اللَّقَاءِ مَمِيدًا^(٣)
وَمَا كَانَ وَقَافًا إِذَا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ وَلَا طَالِبًا مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ مَفْرَعًا
أَبِي الصَّبْرِ آيَاتُ أَرَاهَا وَأَنْبَى أَرَى كَيْلَ حَبْلِ دُونَ حَبْلِكَ أَقْطَعًا
يَوَأْنِي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ وَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَأَسْمَعًا

(١) أي ان دهرى غير معنى يرثاء أخى « مالك » ولا هو بمشفق على لما أصابنى .

(٢) أوضع : أصرع في السير .

(٣) السميع : السيد العظيم .

وَعِشْنَا بِخَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا
وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَذِيمَةً حَقِيقَةً مِنْ
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَّقَنَ بَيْنَنَا
سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَمًا قَبْرُ مَالِكِ
قَوْلَ اللَّهِ مَا أَسْقَى الْبِلَادَ لِحُبِّهَا
تَحِيَّتَهُ مِنِّي ، وَإِنْ كَانَ نَائِيًا
تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمْرِيِّ مَالِكَ بَعْدَمَا
قَقَلْتُ لَهَا : طُولُ الْأَسَى إِذْ سَأَلْتَنِي
وَقَقَلْتُ بَنِي أُمِّي تَوَلَّوْا وَلَمْ أَكُنْ
فَعَيْدِكَ إِلَّا تَسْمِعِينِي مَلَامَةً
وَحَسْبُكَ أَنِّي قَدْ جَهِدْتُ فَلَمْ أَجِدْ
فَلَا فَرِحَ حَا إِنْ كُنْتُ يَوْمًا بِمِثْقَالِ

أَصَابَ الْمَنَاءَ بِأَرْهَاطِ كِشْرَى وَمُتَبَّمَا
الدُّهْرَ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا^(٤)
لِطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَمَّا
فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي يَوْمَ وَدَعَا
رِهَامَ الْغَوَادِي الْمَرْجِيَاتِ فَأَمْرَعَا^(٥)
وَلَسَكِنْتِي أَسْقَى الْحَبِيبَ الْمُوَدَّعَا
وَأَمْسَى تَرَابًا فَوْقَهُ الْأَرْضُ بُلْقَمًا^(٦)
أَرَاكَ قَدِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ أْفْرَعَا^(٧)
وَلَوْعَةً حُزْنٍ تَبْرُكُ الْوَجْهَ أَسْفَعَا^(٨)
خِلَافَهُمْ أَنْ أَسْتَكِينُ فَأَضْرَعَا^(٩)
وَلَا تُنْكِي جُرْحَ الْغَوَادِ فَأَوْجَمَا
بِكُنْفِي عَنْهُمْ لِلْمَنِيَّةِ مَدْفَعَا
وَلَا جَزَعَا إِنْ نَابَ دَهْرٌ فَأَوْجَمَا

- (٤) جذيمة : ملك كان له نديان ظلا يلزمانه حتى فرق الموت بينهم .
(٥) الرهام : المطر ، الغوادي : الأمطار النازلة صباحا ، المزجيات : أي
ساقها ودفعها .
(٦) البلقع : الأرض القفر .
(٧) ابنة العمرى : زوجته .
(٨) أسفعا : سواد يضرب الى حمرة .
(٩) خلافهم : بعدهم .

تعليق

إن عاطفة الأخوة التي تغذيها مشاعر حب ومودة بين متمع ، وأخيه مالك ، تتجلى في قدرة متمع ، على تجسيد الفجعة التي أصابته والتي تتخذ في القصيدة الصور الآتية :

- ١ - تحسر وألم للدهر الذي يصيب بمصائبه ولا يأسى للتوجعين منها .
- ٢ - تذكارات موحدة للشقيق العزيز والسيد النبيل والتي تتناوح في ذاكرة متمع ، وهو يعدد صفاته السكريمة ، فهو سمح النفس جواد إذا ما ركب إليه محتاج مجد ؛ وجد عند مالك ، العطاء والخير ، وتتمر صور ذلك البطل الكريم فإذا هو أغر ، كنصل السيف ، كناية عن الأصل العريق وتشابك معها هذه الصورة التشبيهية له بأنه كنصل السيف حدة ومضاء ونقاء ، وأنه يهتز للندى والسكرم حين يبخل للكرماء وفي مواطن اليأس والقتال يتقدم إذا وقف الشجعان لا يفرعه موت ولا يرهبه حنف .
- ٣ - ثم يبين متمع ، عن ألمه المضاعف لهذا القدر الذي لا مهرب منه حيث لا يجدى لإزائه صبر أو تحمل ، أبي الصبر آيات أراها ، فينادى عليه له يرد ضراعة أخ محطوم الفؤاد .
- أخى متى ما أدعُ باسمك لا تجب وكنت جديراً أن تجيب وتسمعا
- ٤ - ويحاول التأسى فن قبل ، أصاب المنايا رط كسرى وتبعاً ، ومن قبل تفرق ندمانا جذيمة ، ولكن هل يصدق القلب أن الشقيقين الحبيبين لن يلتقيا وهل صحيح أنهما بعد اجتماع لا ينقسم قد تفرقا إلى غير لقاء .
و فلما تفرقنا كآني ومالك أطول اجتماع لم نبت ليلة معاً ،
- ٥ - لم يبق إلا الرضاء الأليم ، فليسق الله أرضك يا مالك إنجية منى ومجبة لك ولا أدعو بالسقيا الأرض إلا لأنك ثار بها .
فوالله ما أسقى البسلاد لحبها ولكنني أسقى الحبيب المودعا
- ٥ - وتراه زوجه ، ابنة العمرى ، كالظلال النازوى نحولا وحزنأ وأسى وتشفق به والهة ، مالك بعد ما أراك قديماً ناعم البال أفرعا ؟

ألا تدرين يا بنت العمري : لقد فقد الأخ والشقيق والسيد العظيم ففقدت
بفقدته كل شيء .

فقلت لها . طول الأسى إذ سألتني ولو عة حزن ترك الوجه أسعفا
ومن قبله مالك . فقدت أخوة لي وإني على عهد الوفاء مقيم ومع هذه
المصائب المتواليه فلن أضعف للخطوب ولن أستكين .

فإناشدك الله لا ملامه منك أسمعها ولا تنكئ جراح القلب فتزيدى الجراح جراحا
فقيسك ألا تسمعين ملامه ولا تنكئ جرح الفؤاد فأوجعا

وحسبك أنى جاهدت حتى أدفع الموت عنهم : فما استطعت إلى ذلك سبيلا ولم يبق
إلا أن يتجمد القلب من كثرة ما أراق من دم ويتحجر الشعور من طول ما عانى
وتعذب حتى أصبح كل شيء سواء : الحزن والفرح الضحك والبكاء .

فلا فرحاً إن كنت يوماً بغبطة ولا جزعا إن ناب دهر فأوجعا
قصيدة وفاء وألم تخلو من تلك الحيل البلاغية التي عرفناها باسم الاستعارة أو
أو التشبيه أو غيره لتخلى المكان لعاطفة صادقة تنثال بعنقوية صادقة موجمة ولعلها في
في رأينا أبلغ وأشد تأثيرا .

من صور الشهامة العربية

للمنعم الكندي

تمهيد : عندما تكون النفس مفطورة على النبل فإن هذه النفس تجعل وجودها لا يتحقق إلا بأن تعطي ولا تأخذ ، تمنح ولا تمنع هكذا كانت نفس المنعم الكندي وهو من شعراء الدولة الأموية .

النص

يُمَاتِي فِي الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا دُونَِي فِي أَشْيَاءِ تُكْسِبُهُمْ حَمْدًا
أَسْدُ بِهِ مَا قَدْ أَخْلَوْا وَضَيَّعُوا تُغَوَّرُ حُقُوقِ مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدًّا^(١)
وَفِي جَفْنَةٍ مَا يُفْلِقُ البَابُ دُونَهَا مُكَلَّلَةٌ لَحْمًا مُدَقَّقَةً تَرْدًا^(٢)
وَفِي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَمَلْتُهُ حِجَابًا لِيَبْتِي ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عَبْدًا^(٣)
وَإِنَّ الدِّيَّ يَبْنِي وَيَبْنِي بَنِي أَبِي وَيَبْنِي بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلِفٍ جِدًّا
فَإِنَّا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَزَّتْ لِحُومُهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا تَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ وَإِنْ هَمَّوْا غَيْبِي هَوَيْتُ لَهُمْ رَشْدًا^(٤)
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسِ تَمْرُ بِي زَجَرْتُ لَهُمْ ظَيْرًا تَمْرُ بِهِمْ سَعْدًا

(١) أَخْلَوْا تُغَوَّرُ حُقُوقُ : يقصد بعض قومه الذين بخلوا بحقوق القبيلة ،

فاستدان ليقتضيها .

(٢) جَفْنَةٌ : وعاء واسع ، ثرد : خبز .

(٣) نِيد : عال ، عَتِيق : أصيل .

(٤) ضَيَّعُوا غَيْبِي : ذموني ، هَوَّوْا : أحبوا .

وَلَيْسُوا إِلَى نَعْرِي سِرَاعًا وَإِنْ هُمْ دَعُونِي إِلَى نَعْرٍ أَتَيْتَهُمْ شَدًّا
وَلَا أَجْمَلُ الْحِقْدِ الْقَدِيمِ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَيْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَ
لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِيٌّ وَإِنْ قُلٌّ مَالِي لَمْ أَكْفَهُمْ رِفْدًا^(٥)
وَلِيَّيْ لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شِيْمَةٌ لِي غَيْرَهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

التعليق

نشأ الشاعر في بيت كرم حتى أتلف ماله إطعاماً للجائع ودفاعاً عن مظلوم وحماية لقومه ورعاية لقبيلته ، واسكن أبناء عمه - وقد فقد ماله - يعبرونه بفقره ، وينسون أنه افتقر ليغنوا وأنه استدان لأنهم بخلوا عن حق الجائع والمحتاج فكانت أبياته التي ينتزع فيه العتب بالآلم .

لقد استدان في أشياء تكسبهم حمداً ، كما يقول ، ثم يذكر العائنين بأن هذا الدين يسد به ما أدخلوا وضيعوا ، ونفسه تآبى أن يضيع حق أو يهان كريم .
أسد به ما قد أدخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وتضىء لنا ذاكرة الشاعر على حروف كلماته ما صنعه وما يصنعه بما يود صنعة كل إنسان خبير أصيل .

الطعام يملأ البيت حتى لا يستطيع لإخلاق الباب لسكنته واللحم والخبز لكل محتاج وجائع ومكلة لحم مدفقة ترداً ، .

وهو حامى القبيلة يكلف نفسه عبء هذه الحماية من خيل أصيلة ومن دفرس نهد عتيق ، .

ومع ذلك فهو مسرف في بذل روحه وهم يسرفون في ذمه ولومه فسكان بيته الذي ينضح بالآلم وبهذه الجملة المؤكدة في أوله .

وإن الذي بيني وبين بنى أبي وبين بنى عمي لمختلف جداً

(٥) الرfid : العطاء .

ثم تتوالى تفصيلات لهذا الاختلاف المؤلم بين نفس مطبوعة على الخير موقوفة على البذل أو العطاء وبين هؤلاء الذين أعطاهم فشحووا ورعاهم فنقموا ومع ذلك فإن أكلوا لحمه وفر لحومهم وإن هدموا مجده ، بنيت لهم مجداً ، وإن ذموه واعتابوه فسيظل نقي النفس يحتفظ غيبيهم فالوردة لا تهرب من عطرها والبحر لا يفر من مائه فإن سعدوا بنحسه فسوف يرجو لهم السعد والأمن .

وهم خانعون لا ينصرون أحداً ولا ينصرونه كذلك إلا أنه يؤكد ، إنهم دعوني إلى نصر أتيهم شداً .

نعم أصالة وشهامة ترفع عن الحقد القديم فهو سيد وزعيم ، وليس رئيس القوم من يحمل الحقداً ، .

وما دام لي مال فهو لهم فهم أهلي وعشيرتي ، وإن قل مالي لم أكلفهم رفداً ، ومع شموخ هذه النفس وكبرياتها وعزتها فإنها تتواضع حتى تصير في منزلة العبد إذا كان ضيف يتلسزادا أو يتطلب معروفاً ، وفي غير ذلك فإنها شاحخة أيمة :

وإن لعبد الضيف مادام نازلاً وما شبيمة لي غيرها تشبهه العبد بصورة وضيئة للعربي الأصيل في أخلاقه ومثله .

من أشعار مالك بن الريب التيمي

تمهيد : عاش مالك في القرن الهجري الأول . وكان فيما ذكر — من أجمل العرب جمالا ، وأبينهم بيانا . وكان في أول أمره لصاً فاتكأ غريباً . فلما علم بأمره سعيد بن عفان أخو الخليفة عثمان بن عفان — وكان والياً على خراسان من قبل معاوية — دعاه وقال له : ويحك يا مالك ، ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداة وقطع الطريق ؟ قال أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الإخوان . قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعني ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير ، أكف كأحسن ما كف أحد . فاستصعبه ؛ وانظم في جيشه وأجرى عليه خمسمائة دينار في كل شهر وبقي معه حتى مات بخراسان .

وقيل في سبب موته أنه طعن فسقط وهو بأخر رمق .

وقيل : كان ببعض الطريق في خراسان . فأراد أن يلبس خفه فإذا بأقمنى في داخلها فلسعته ، فلما أحس بالموت استلقى على قفاه ثم قال هذه القصيدة التي يرثي فيها نفسه ويذكر غربته ومرضه .

النص

أَلَا آيَتَ شِعْرِي هَلْ أَيْدَتَنَّ لَيْلَةً

يَجْتَنِبُ الْمَضَى ^(١) أَزْجِي الْقِلَاصَ ^(٢) النُّوْاجِيَا ^(٣)

فَلَيْتَ الْمَضَى لَمْ يَقْطَعْ الرَّكْبُ عَرْضَهُ

وَأَيْتَ الْمَضَى مَا بَى الرَّكْبَ لَيْلِيَا

-
- (١) جمع غضاة وهي شجرة من نوع الأثل ، خشبه صلب .
 - (٢) جمع قلوص وهي الناقة .
 - (٣) جمع ناجية من نجت الناقة أي أسرعت .

لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الْعَفْصَى لَوْ دَنَا الْإِفْصَى

مَزَارٌ وَلَكِنَّ الْعَفْصَى لَيْسَ دَانِيَا

أَلَمْ تَرَنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا

تَذَكَّرْتُ مَنْ يُبْسِكِي عَلَى قَلَمٍ أَجْدُ*

سَوَى السَّيْفِ وَالرَّمْعِ الرَّدِّيِّ^(٤) بَاكِيَا

وَأَشَقَّرَ مَجْهُوكَا^(٥) يَجْرُهُ عِنَانُهُ إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتَ سَاقِيَا

وَلَكِنَّ بَا كُنَافِ السَّمِينَةِ^(٦) نِسْوَةٌ

عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ الْمَشِيَّةُ مَا بِيَا

حَرِيعٌ عَلَى أَيْدِي الرَّجَالِ بِقَفْرَةٍ يُسَوُونَ لِحَدِي حَبِثَ حُمِّ قَضَائِيَا

وَأَمَّا تَرَأَيْتَ عِنْدَ مَرَوْ^(٧) مَنِيَّتِي وَخَلَّ^(٨) بِهَا جِسْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا

أَقُولُ لِأَصْحَابِي أَرْفَعُونِي فَإِنَّهُ يَقْرَأُ بَعِيْنِي إِنْ سَهَيْلٌ^(٩) بَدَائِيَا

فَيَا صَاحِبِي رَحِمِي دَنَا الْمَوْتُ فَاَنْزِلَا بِرَأْيِي إِنْ مَقِيمٌ^(٩) لِيَالِيَا

أَقِيَا عَلَى الْيَوْمِ أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ وَلَا تَمَجِّلَانِي قَدْ تَبَيَّنَ شَأْنِيَا

(٤) نسبة الى امرأة تدعى ودين كانت تجيد صناعة الرماح .

(٥) محكم الخلق .

(٦) اسم موضع .

(٧) مدينة بوسط آسيا (خراسان) .

(٨) اخيل وهزل .

(٩) نجم يظهر في بلاد العرب ، والمعنى ان سهيلا لا يرى بخراسان ولكن

يرى في بلد اشاعر ، فاذا رفع استطاع رؤيته .

وَقَوْمًا إِذَا مَا اسْتُلِّ رُوحِي فَهَيْثَا لِي السُّدْرُ^(١٠) وَالْأَكْفَانُ عِنْدَ فَنَائِيَا
وَخَطَا بِأَطْرَافِ الْأَيْسِنَةِ مَضْجَعِي وَرُدًّا عَلَى عَيْنِي فَضْلَ رِدَائِيَا
وَلَا تَحْسِدَانِي بَارِكَ اللَّهُ فِيكُمْمَا مِنْ الْأَرْضِ ذَاتِ الْعَرْضِ أَنْ تُوسِعَالِيَا
خَذَانِي فَجُرَّانِي بِثَوْبِي إِلَيْكُمْمَا فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَمْبًا قِيَادِيَا
وَقَدْ كُنْتُ عَطْفًا إِذَا الْخَيْلُ أَذْبَرَتْ سَرِيهًا لَدَى الْهَيْجَا إِلَى مَنْ دَعَانِيَا
وَقَدْ كُنْتُ صَبَّارًا عَلَى الْقِرْنِ فِي الْوَعَى وَعَنْ شِثْمِي ابْنَ الْعَمِّ وَالْجَارِ وَانِيَا
فَطَوَّرَا تَرَانِي فِي طِلَالِ^(١١) وَنَعْمَةٍ وَطَوَّرَا تَرَانِي وَالْعِتَاقِ^(١٢) رِكَابِيَا
وَيَوْمًا تَرَانِي فِي رَحَى^(١٣) مُسْتَدِيرَةٍ تُحَرِّقُ أَطْرَافَ الرَّمَاحِ رِيَابِيَا
وَقَوْمًا عَلَى بَيْتِ السَّمِينَةِ أَسْمِيَا

بِهَآ الْعُرَّةُ^(١٤) وَالْبَيْضُ الْحِسَانَ الرَّوَانِيَا^(١٥)

بَأَنْسِكُمَا خَلْفَتُمَانِي بِقَفْرَةٍ تَهِيلُ عَلَى الرَّيْحِ فِيهَا السَّوَافِيَا^(١٦)
وَلَا تَنْسِيَا عَهْدِي خَلِيلِي بَعْدَمَا تَقَطَّعُ أَوْصَالِي وَتَبْنِي عِظَامِيَا

(١٠) السدر : شجر النبق .

(١١) جمع ظل وهو الندى ، والمراد النعيم .

(١٢) جمع عتيق وهو الحصان الأصيل .

(١٣) المقصود موضع الحرب ، ووصفها بأنها مستديرة وذلك حيث يستدير

الناس للقتال .

(١٤) البيض .

(١٥) الرنو : النظر الدائم ، الرواني : جمع رانية وهي الناظرة .

(١٦) جمع سنافة وهي الرملة الدقيقة .

وَلَنْ يَمْدَمَ الْوَالُونَ بِنَاءٍ^(١٧) يُصِيبُهُمْ
يَقُولُونَ لَا تَبْعِدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَنِي
غَدَاةَ غَدٍ يَا لَهْفٍ نَفْسِي عَلَى غَدٍ
وَأَصْبَحَ مَالِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ^(١٩)
فَيَأْتِيَتْ شِعْرِي هَلْ بَكَتْ أُمُّ مَالِكٍ
إِذَا مِتُّ فَاغْتَادِي الْقُبُورَ وَسَلَّمِي

عَلَى الرَّمْسِ أُسْقِيتِ السَّحَابَ الْفَوَادِيَا^(٢١)
عَلَى جَدَثٍ قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَهُ
رَهْبَةً^(٢٣) أَحْجَارٍ وَتُرْبٍ تَضَمَّنَتْ
قَرَارَاتِهَا^(٢٤) مِثِّي الْعِظَامَ الْبَوَالِيَا
بَنِي مَازِنٍ وَالرَّيْبَ الْأَتْلَاقِيَا
سَتْفَلِقُ أَكْبَادًا وَتُبْكِي بَوَاكِيَا

**

-
- (١٧) البت : أشد الحزن
 - (١٨) الادلاج : السير من أول الليل
 - (١٩) الطريف المال المستحدث ، والتالد العتيق الموروث
 - (٢٠) عالي الشيء : رفعه
 - (٢١) جمع غادية وهي السحابة تمطر في الغداة
 - (٢٢) المرنباني : كساء من خز أو من وبر الابل
 - (٢٣) ثابتة ودائمة ومقيمة
 - (٢٤) القرارة : بطن الوادي حيث يستقر الماء فضربه مثلا للقبر

غَرِيبٌ بِعَيْدِ الدَّارِ نَاوٍ بِقَفْرَةٍ يَدِ^(٢٥) الدَّهْرِ مَعْرُوفًا بِالْأَتَدَانِيَا
أَقْلَبُ طَرَفِي حَوْلَ رَحْلِي^(٢٦) فَلَا أَرَى

بِهِ مِنْ عِيُونِ المَوْنِسَاتِ مُرَاعِيَا
وَبِالرَّمْلِ مَنَانِسُوَّةٍ لَوْ شَهِدَنِي
وَمَا كَانَ عَهْدُ الرَّمْلِ عِنْدِي وَأَهْلِهِ ذَمِيمًا وَلَا وَدَعْتُ بِالرَّمْلِ قَالِيَا
فَمِنْهُمْ أُمِّي وَابْتَتَايَ وَخَالَتِي وَبَاكِتِي أُخْرَى تَهْجُ البَوَاكِتِيَا

التعليق

تعتبر هذه القصيدة لوناً فذاً من ألوان الرثاء في الشعر العربي : فهي بوزنها ، ورويها ، وجرسها تكاد تمز مشاعرنا هنأ .

وزاد من روعتها أن قائلها بدأ حياته فانسكا ، ضالا ، قاطع طريق ، ثم ترك الغواية والتحق جندياً بالجيش العربي الأموي المحارب في خراسان ؛ فلما خانت منيته غربياً ، وحيداً ، مريضاً ، بعيداً عن الأهل والحلان ، أحاطته اللوعة من كل جانب ، وذهبت نفسه حسرات . فراح يبكيها ويرثيها .

ففي أول النص تراه يتذكر أيامه الأولى في فجر شبابه بوادي الغضى يسوق النياق الفتيمة ، ويتلذذ بذكر اسم هذا الوادي فيكرره نحو ست مرات في ثلاثة أبيات متوالية ، وكان يستطيع الإضمار في موضع الإظهار ، ولكنه يجد المتاع كله في أن يكرر اللفظ ، وأن يعيده على مسمعه وعلى خاطره في وقت محنته .

(٢٥) أي مدى الدهر وأبد الدهر .

(٢٦) ما يوضع على ظهر الدابة كالسرج ، وما يستصحب من الأثاث في السفر .

بعد ذلك يتلفت حواليه باحثاً عن يبيكي ويرثيه فلا يجد إلا عدة الحرب من سيف وريح وحصان . وهذا تتوالى على خاطره صور لعلماء تتوارد على خواطر المحتضرين في مثل تلك الحمال : فهناك في مكان بعيد في الجزيرة العربية نسوة يعز عابهن ما به ، وهنا عند مدينة مرو الحرسانية أخذت تحين وفاته ، فيطلب من رفاقه أن يهيشوا له القبر والأكفان ، ويصف نفسه عطافاً إذا انهزمت الخيل ، سريعاً إلى الحرب لسكل من يدعوه إليها ، صبار على مقارعة الأقران في حومة الوغى . لحياته لا تخرج عن صور تين ، فهو إما في نعيم مرفه مقيم ، وإما في حرب ضروس لاتلين . وهكذا تصل خواطره إلى الذروة حين يفيض باللوعة والأسى على نفسه ، فيترك ثاوباً في قبره ، وتصير أموره إلى غيره .

بعد هذا يتذكر أسرته تلك البعيدة ، طالباً من أم مالك ألا تكف عن نعيه والبسكاه عليه ، واصفاً قبره الذي يضم عظامه البالية ، ويتمنى على أصحابه أن يبلغوا خسر موته إلى بني قومه . وأن يعزوا وقلوصه ، تلك التي دستملى أكباداً وتبكي بواكباً .

وينتهى النص بأبيات خمسة حزينة باكية ملتاعة :

فهو غريب ، وحيد ، بعيد الدار ، مقيم في مكان قفر أبد الدهر ، وهو يدور بعينيه حول رحله ، مؤملاً أن يرى البواكي يؤنسونه ، قبل أن يلتقط طائر الموت جيات قلبه ، فلا يرى شيئاً . مع أن له قريبات من النساء في الرمل ، لو شمدته على تلك الحال لبكين بكاء مرراً ولقددين الطبيب المعالج بأرواحهن .

وقد كان قلبه معطفاً وبالرمل وأهله ، فذكره مرتين في بيت واحد ، ولم يترك به إلا الأحمه ، ذكر منهن : أمه وابنتيه وخالته ... وهكذا ينتهى هذا النص .

حول النقائض

تمهيد : من المعالم الأدبية في فن الشعر في عصر الأمويين تلك النقائض الشعرية التي دارت بين الأخطل وجرير والفرزدق من أثر تلك الخصومات القبلية التي أعاد الأمويون النار تشتعل في تلك العصبية التي عمل الإسلام على القضاء عليها وقد كان الدافع لإثارة تلك العصبية عاملاً سياسياً أرادته الأمويون لشغل المجتمع العربي عن الحكم ونظامه في الدولة الإسلامية والذي ظل على الرغم من ذلك مثار خلاف في الرأي طيلة قرون طويلة .

وعلى الرغم من أن هذه النقائض كانت خطراً اجتماعياً من حيث إثارتها لثغرة العصبية وإشاعة الفرقة وتسمية الإحن والأحقاد إلا أن أثارها الفنية لا يمكن نكرانها فقد أعطت نراء شعرياً في تفجير طاقات فنية حيث يكمن عنصر الإثارة النفسية والوجدانية لدى الشعراء الذين انساقوا إلى تيار تلك النقائض وقد بلغوا أكثر من أربعين شاعراً ثبت منهم في الميدان ما عرف بالتالوث الأموي ، الأخطل - جرير - الفرزدق ،

معنى النقائض .

النقيضة قصيدة يرد فيها صاحبها على خصم له . فينقض ما أضافه ذلك الشاعر الخصم إلى نفسه وإلى قبيلته من فضل ، ويحمل ذلك الفضل لقبيلته ويقدم النقائض لخصمه ويلصقها به ، مع مراعاة الشكل الفني الخاص بأن تكون القصيدة على نفس الوزن والقافية .

نعرض نقيضتين لكل من جرير والفرزدق . أما جرير فهو من بني كليب بن يربوع من قبيلة دميم ، وقد ولد باليمامة أيام عثمان بن عفان ، وكان من بيت فقير متواضع ، وكانت حياته بدوية طبعته بطابعها ، وقد هجاه من شعراء عصره قرابة أربعين شاعراً استطاع أن يخرس أصواتهم ، ويجعلهم ينسحبون من ميدانه ، ولم يثبت أمامه سوى د الأخطل ، و الفرزدق ، وكان شاعراً للحجاج الثقفي الذي قدمه إلى عبد الملك بن مروان . كما اتصل بأبناء عبد الملك ومدحهم أيضاً وتوفي عام ١١٠ هـ .

وأما الفرزدق ، فهو همام بن غالب من بني د دارم ، ولقب بالفرزدق لضخامة وجهه وجهامته ؛ والفرزدق في الأصل قطعة العجين ، وقد ولد الفرزدق بالبصرة ، وظل حياته يدور بين الأمراء والولاة بين مدح وذم ، حتى نشب الهجاء بينه وبين جرير ، واستمر طيلة نصف قرن ، وتوفي سنة ١٥٢ هـ .

النقيضة الأولى

للفرزدق

يا بن المرآة والهجاء إذا التقت أعناقهُ^(١) وتماحك الخصمان
ما ضرَّ تغاب وائل أهجوتها أم بُلَّتْ حيثُ تناطح البعران
يا بن المرآة إن تغلب وائل رفموا عَنانِي فوق كلِّ عَنان
كَانَ الهذيلُ يقودُ كلَّ طيرة^(٢) دهما مُقربةً وكلَّ حصان
يصهلن بالنظر البعيد كأنما إرناها^(٣) بيوائن الأشطان
يقطمن كلَّ مدى بعيد غوله^(٤) خبب السباع يُقدن بالأرسان
وكان رايات الهذيل^(٥) إذا بدت فرق الحميس كواسر العقبان
وردوا إراب^(٦) بحففل من وائل لب العشي ضبارك الأركان
ويبيت فيه من المخافة عائداً ألف عليه قوائس^(٧) الأبدان
تركوا لتغلب إذ رأوا أرماحهم إراب كلُّ لثيمة مدران^(٨)

(١) أعناقهُ : جماعته • التماحك : اللجاجة والخصام •

(٢) طيرة : فرس طويلة في السماء سريعة • مقربة : أى مقربة •

(٣) إرناها : أصواتها •

الأبار العميقة • فكانها تصهل من آبار بوائن لسعته أجوافها •

(٤) غوله : بعده •

(٥) الهذيل : الهذيل بن هبيرة • الحميس : الجيش الضخم •

(٦) إراب : موضع • ضبارك : الجيش الضخم الغليظ •

(٧) القوائس : أعلى البيض • الأبدان : الدرغ غير السوانج •

(٨) مدران : كثيرة الاتساع • لثيمة : يقصد نساءهم •

تُدْمَى وَتَغْلِبُ يَمْنَعُونَ بِنَاتِهِمْ أَقْدَامَهُنَّ حِجَارَةُ الصَّوَانِ (٩)
 يَمْشِينَ فِي أَثَرِ الْهَذِيلِ وَتَارَةً يُرْدَفْنَ خَلْفَ أَوَاخِرِ الرَّكْبَانِ
 لَوْلَا أَنَاثُهُمْ وَقَضْلُ حُلُومِهِمْ بَاعُوا أَبَاكَ بِأَوْكْسِ الْأَثْمَانِ
 وَالْحَوْفَزَانِ (١٠) أَمِيرِهِمْ مُتَضَائِلِ فِي جَمْعِ تَغْلِبَ ضَارِبٌ بِجِرَانِ
 أَحْبَبْنَ تَغْلِبَ إِذْ هَبَطْنَ بِلَادِهِمْ لَمَّا سَمْنَ وَكُنَّ غَيْرَ سِمَانِ
 يَمْشِينَ بِالْفَضَلَاتِ وَسَطُ شُرُوبِهِمْ يَتَّبِعْنَ كُلَّ عَقِيرَةٍ (١١) وَدُخَانِ
 يَتَتَابِعُونَ إِذَا انْتَشَوْا بِنَاتِكُمْ عِنْدَ الْإِيَابِ بِأَوْكْسِ الْأَثْمَانِ
 وَاسْأَلْ بِتَغْلِبَ كَيْفَ كَانَ قَدِيمُهَا وَقَدِيمُ قَوْمِكَ أَوَّلَ الْأَزْمَانِ
 قَوْمٌ هُمْ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدٍ عَنُودَةً عَمْدًا وَمُ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمَانِ
 قَتَلُوا الصَّنَائِعَ (١٢) وَالْمُلُوكَ وَأَوْقَدُوا نَارِينَ قَدْ عَلْنَا عَلَى النَّيْرَانِ
 لَوْلَا فَوَارِسُ تَغْلِبَ ابْنَةُ وَائِلِ نَزَلَ الْعَدُوُّ عَلَيْكَ كُلَّ مَكَانِ
 حَبَسُوا ابْنَ قَيْصَرَ وَابْتَدَّوْا بِرِمَاحِهِمْ يَوْمَ الْكِلَابِ كَأَكْرَمِ الْبُنْيَانِ
 وَلَقَدْ عَلِمْتَ لِيذْرِفْنَ ذَا بَطْنِهِ يَرْبُوعَكُمْ لِمَوْقِصِ الْأَقْرَانِ
 إِنْ الْأَرَاقِمَ لَنْ يُنَالَ قَدِيمُهَا كَلْبَ عَدَوِي مُتَّهِمِ الْأَثْمَانِ
 قَوْمٌ إِذَا وَزِنُوا بِقَوْمٍ فَضَلُّوا مِثْلِي مُوَاظِنِهِمْ عَلَى الْمِيزَانِ

(٩) الصَّوَانُ : الحجارة الرخوة .

(١٠) الحَوْفَزَانُ : أمير من هذيل . متضائل : متصاغر .

(١١) عَقِيرَةٌ : صوت الفناء .

(١٢) الصَّنَائِعُ : أنصار الملك عكس الوضائع وهم حناثر أهل المملكة .

النقيضة الثانية

لجرير

فأجابه جرير يهجو الاخطل ومحمد بن عمير بن عطارذ الذي أوعز للاخطل
يحكم للفردق أمام الأمير :

لمن الديار ببرقة الرُوحان إذ لا تبيعُ زماننا بزمان
إن زرت أهلك لم يبالوا حاجتي وإذا هَجَوْتُكَ شَفَنِي هُجْرَانِي
راجعت بَعْدَ سُلُوبِهِنَّ صَبَابَةً وعرفت رسم منازل أبكاني
قد رابني نَزْعٌ وشيبٌ شائع بمد الشباب وعصره الفينان
شَفَفَ القلوبَ وما تقضى حاجة مثل المها بصريمة الحومَانِ
نزل المشيبُ على الشباب فراعني وعرفتُ منزله على أخذَانِ
حُوراليون يمسن غير جوادف^(١) هَزَّ الجُنُوبَ نَوَاعِمَ الأَيْدَانِ
وإذا وعدتك نائلاً أخلفنه وإذا غنبت فهنَّ عنك غَوَانِي
أصحا فؤادك أي حين أوان أم لم يرُعكَ تفرق الجيرانِ
أخطا الربيع بلادهم فتيمنوا ولحُبِّهم أحببتُ كلَّ يمانِي
بكرت حمامة أيكه محزونة تدعو الهذيل فهيجت أحزاني
لازلت في غللى يسرُّك نافع وظلال أخضر ناعم الأغصانِ
ولقد أبيتُ ضجيج كلِّ مخضب رخص الأناحل طيب الأردانِ

(١) جوادف : القصار من النساء . العيدان : النخيل الطوال .

عَطَرَ الثيابِ مِنَ العَبِيرِ مُذِيلٌ
صدعَ الظمآنِ يَوْمَ بَنِّ فَوَّادِهِ
هل تُؤنسانَ وديرَ أروى بيننا
وإذا لقيتَ على زورِدٍ^(٢) مُجاشِعاً
قتلوا الزبيرَ وقيلَ إنَّ مُجاشِعاً
مِنَ كلِّ مُنتفِخِ الوَرِيدِ كَأَنَّهُ
يا مُستَجيرَ مُجاشِعِ يَحْشَى الردى
إنَّ ابنَ شَمرةَ والقَرينَ وضَوطَرى
ونسيتَ أعينَ والرَّبابَ وجازِمَ
إنا لَنَعْرِفُ ما أبوكَ بِحاجِبِ
لما انهزمتَ كفى الثغورَ مشيعِ
ياذا العِباءةَ إنَّ بشرأَ قد قَضَى
فدعوا الحُكُومَةَ لستَمُ مِن أَهْلِها
بكرَ أحقَّ بأنَّ يَكُونُوا مَقنَما
كذبَ الأَخِيطلَ إنَّ قَوْمى فيهم

يَمْشى الهوينا مِشِيَةَ السَّكْرانِ
صَدَعِ الزُّجاجةَ ما لَدانِكَ تَدانِ
بالأعزَلينِ^(٣) بواكرِ الأظمانِ
تَرَ كُوا زرودَ خبيثَةَ الأَظمانِ
شَهِدوا بِجمعِ ضياطرَ^(٤) عزلانِ
بِقُلِّ تَقاعَسَ فوَقَهُ خُرْجانِ
لا تَأَمَنَنَّ مُجاشِعاً بأمانِ
بئسَ الفوارسَ لَيْلَةَ الحدَثانِ
ونوارَ حَيْثُ تُصَلِّصِلُ الحُجْلانِ
فألحقَ بأصلِكَ مِن بَنى دَهانِ
منا غِداةَ جِنتَ غَيْرُ جِبانِ
ألا تجوزَ حُكُومَهُ النِّشوانِ
إنَّ الحُكُومَةَ فى بَنى شَيبانِ
أوَ أنَّ يَفُوا بِحَقِيقَةِ الجِيرانِ
تاجُ المُلُوكِ ورايةَ النُّعمانِ

(٢) الاعزلان : واديان .

(٣) زرود : مكان .

(٤) ضياطر : العبيد والتابعون .

أني ليُعرفَ في السُّرادقِ منزلي عندَ الملوكِ وعندَ كلِّ رِهانِ
خفا بفضِّ يديكَ فإنني في مُشرفِ صعبِ الذرَى مُتمنِّعِ الأركانِ
ولقد وسِمتَ مجاشعاً وتغلبِ عندي محاضرةً وطولِ هوانِ
قيسُ علي وضحِ الطريقِ وتغلبِ يتقاودونِ تقاودُ العُميانِ
عليسُ ابنُ عابدةِ الصليبِ^(٥) بمنتهِ حتى يذوقَ بكأسِ مَن عاداني

التعليق

قصيدة الفرزدق : فضل ، الأخطل ، أمام الأمير ، بشر بن مروان ، بالكوفة ، الفرزدق ، علي ، جرير ، قاتلاً أمام الأمير : الفرزدق أشعر العرب ، فقام الفرزدق ، يذكر تفضيل ، الأخطل ، إياه على الشعراء ، ويمدح بني تغلب ، ويهجو جريراً .

شعر الفرزدق ، يمتاز بصلابة تراكيبه اللغوية ، مع طغيان العنصر الخطابي ، والاهتمام بصخب الأنفاظ وعنفها ، والميل إلى الغريب والوحشي ولعل ذلك مادفع النقاد في موضع مقارنتهم بشعر جرير ، و الفرزدق ، إلى قولهم : إن الفرزدق ينحت من صخر ، وإن جريراً يغرف من نهر .

تطالعك في القصيدة صورة لذلك العنف الموجه في الهجاء ، حيث يعمد إلى التقليل والتهوين من شأن جرير وقبيلته ، ويبين أن تغلب ، قبيلة الأخطل قد رفعت من شأنه وهو هنا كأنه يشير إلى امتنانه وشكره للأخطل الذي قدمه علي ، جرير ، ثم تتداعى صورته التي يفخر فيها بالهديل بن هبيرة وتستمر أبياته التي يصف الأرماع والفرسان والأعلام ، وتستمر صورته التي تقدم قبيلة تغلب ، علي غيرها ، وتسجل بطولاتهم ومفاخرهم . مع تقديم مقارنة بين مجد هؤلاء وحطة قوم جرير .

(٥) ابن عابدة الصليب : يقصد الأخطل .

قصيدة جرير: يرد وجرير، على الأخطل، وتحس أبياته تنثال في عذوبة ورقة في وفقة على اما دن اللهو والشباب، وتذكر الامس الغائت والبكاء على ما ضاع ومن ضاع وتأخذ هذه الابيات العذبة في ذكريات الماضي أحياناً متعددة من القصيدة لاحتس بملل ولا ضيق وهي تنثال عليك .

إلا أنك تراه حين ابتدأ في هجائه اتخذ طابعاً ساخراً يعتمد على تجسيم الصورة الهازلة في إعطائها طابعاً شعيباً في التهمك، وقد كان ذلك من أسباب رواج شعر جرير، وسط العامة، وهو يغمز في قصيدته «الأخطل» بشربه الخمر حتى أصبح من سماته، وأن مثله لا يصلح للحكم حتى يقضى بتفضيل «الفرزدق» عليه، ولما كان وجرير، يعانى من إحساسه بانضاع أصله، فإنك تجد جريراً يبرر ثغره بنفسه لابقومه إلا إشارات يتلصق قرابة لقومه في البيت الحاكم الأموى، وسرعان ما يحس بأنها: وشائج هشة، فيعود إلى الفخر بنفسه مرة أخرى .

العصر العباسي الأول

العصر العباسي الأول

يمثل العصر العباسي صورة الازدهار الفنى والفكرى فى مختلف مناحى الحياة ،
تآزرت عوامل مختلفة متعددة فى إكسابها رونقها وصلها حتى أصبح الشعر والنثر ومختلف
ألوان الفكر والمعرفة سمة يمتاز بها مجتمع العباسيين .

فى هذا العصر نرى الحياة ترتدى ثوباً قشياً من الجدة والطرافة فى مختلف ألوانها
— بتغير العربى الذى ألف الصحراء مقيماً وظاعناً يلاً أذنيه نغاء الشاة ، ورغاء
الإبل ، وصهيل الخيل إلى حياة اجتماعية وثقافية جديدة .

فقد وجدت فى هذا العصر عقلية جديدة ملقحة بروافد الثقافات الأجنبية التى راحت
تغزو المجتمع العباسي ، وتطعمه بطابعها .

نحن فى عصر العباسيين الذى يقول عنه أحد الباحثين . . « وأما العصر العباسي
فعصر الفخامة والمبالغة فى كل شىء . ضخامة الدولة ونخامتها ، وضخامة الجيوش .
وتسكدس الأموال ، وأبهة الملك ، وسطوة الخلافة ، مظاهر رائعة مختلفة كل الاختلاف
عن حياة البداية . . ولم يكن إذاً بد من أن يساير الشعر العربى تلك الحياة الجديدة ،
وأن يطرح التواضع والبساطة (١) . »

يضاف إلى ذلك هذا الامتزاج الذى كان بين العرب فى العصر العباسي ، وبين
سواهم من الأمم المجاورة ، فقد اختلطت الدماء العربية بدماء أخرى ، قد تكون هذه
الدماء الجديدة فارسية ، وقد تكون بيزنطية ، وقد تكون نبطية ، وقد دُفعت
هذه الدماء الجديدة المتدفقة فى شرايين الجيل الجديد إلى حياة فكرية تتلامم مع
أنماط أفكارهم الجديدة .

(١) التجديد والتطور فى الشعر العربى - للدكتور محمد عبد العزيز

أصبح عصر العباسيين عصر تحضر وفكر ، انعكس ذلك على الخيال الذي كان من أبرز سماته من قبل : الفطرة الشعرية والخيال الذي يمتاز بالعفوية والبساطة التي تعجينا بساطتها — تحول العصر إلى حياة عقلية مدنية بالقياس إلى العصرين السابقين عليه . وكان على الشعر أن يخضع لتطور هذه الحياة ، من ميل إلى التفنن الفكري في الصورة الشعرية والمعاني والألفاظ مما دفع إلى أن يغلب جانب الصنعة جانب العاطفة .

عن هذه الحياة الثرية الخصبة بالمعرفة التي تنتال عليها ، وعن الترف المادي الذي شمل العصر العباسي يقول الدكتور طه حسين : « وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناصجة الرشيدة المشعرة فيه التفت أكبر الاجناس التي تتألف منها الدولة الإسلامية . فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين ، وفيه كان الفرس ومعهم حضارتهم الساسانية المعقدة التي تمتاز بالترف المادي والعقلي معاً ، وفيه كان أخطا الساسانيين الذين نقلوا تراث اليهود ، وتمثلوا تراث اليونان . وكانوا تراجمة هذه الحضارة الجديدة (١) . »

كان من نتاج ذلك أن تأثر الشعر والنثر بهذه الحضارات الجديدة ، وأثر التحضر في الشعر من الأمور التي يسلم بها الأقدمون أنفسهم .

نجد مثلاً على ذلك عند الناقد العربي « عبد العزيز الجرجاني » في كتابه « الوساطة » يضع عنواناً هو « أثر التحضر في الشعر » يقول تحته : « قلنا اتسعت ممالك العرب ، وكثرت الحواضر ، ونزعت البوادي إلى القرى ، وفضاً التأديب والتظرف ، اختار الناس من الكلام أليته وأسهله . . . وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق . واحتدوا بشعرهم هذا المثال ، وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم أطف ما سنع من الألفاظ (٢) . »

لذلك نجد الشعر العباسي تتمثل فيه خصائص فنية لم تتوافر فيما سبق من حيث تنوع الموضوعات ، والتفنن في ضروب القول ، وفي الغوص وراء المعاني الجديدة المبتكرة .

(١) مع المتنبي ج ١ ص ٣٩ .

(٢) الوساطة ج ٣ ص ١٨ — دار احياء الكتب العربية .

ها هو ذا شاعر مترف يصور لنا هذه الحياة المترفة الناعمة وهو يصف بيوت
الوزراء المترفة العريضة الفسيحة الشاهقة فيقول :

صحون تسافر فيها العيون وتحسر عن بعد أقطارها
وفوارة ثأرها بالعراق أضاء الحجاز سنا نارها
ترد على المزن ما أنزلت على الأرض من صوب أمطارها
لها شرفات كان الربيع كساها الرياض بأنوارها

أرأيت إلى تلك القصور بصحوتها البعيدة التي لا تصل العيون إلى أقطارها ؟
أرأيت إلى تلك الشرفات الناعمة المورجة بعطر الربيع ، والتي كساها الرياض
بزهرها وأقاحها .

أرأيت إلى تلك الناخرات التي ترد على المزن ما أنزلت ، فلم تعد الأرض في عصر
العباسيين جذباء مقفرة تحمل بصوب الغمام وقطرات المطر .

انظر إلى هذين النموذجين من الاعتذار وهما من عصرين مختلفين .
أما أولهما فن العصر الجاهلي وأما ثانيهما فن العصر العباسي لترى كيف اختلفت
الصورة الشعرية .

يقول النابغة الذبياني :

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلى به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة تربي كل ملك دوتها يتذبذب
ولست بمسئق أبا لا تله على شعث أي الرجال المهذب

ويقول أبو نواس الشاعر العباسي يعتذر للخليفة العباسي :

بك أستجير من الردى وأعوذ من سطوات باسك
وحياة رأسك لا أعود مثلها وحياة رأسك
فاذا قتلت أبا نوا سك من يكون أبا نواسك

فأين هذه الأبيات من أبيات النابغة السابقة ، وهي التي تضحج بالفخامة والجزالة .

وليس معنى ذلك أن الشعر في العصر العباسي مال إلى بساطة العبارة وترك العمق الفني فليس هذا مقصودنا ، وإنما نعى أن هذا العصر قد تخلّى عن كثير من تقاليد القصيدة الجاهلية ، وأخذ لنفسه مبادئ فنية جديدة .

يقول الدكتور طه حسين عن هذا العصر ومعايره الفنية . « حدثت معان لم يكن يألّفها القدماء فيجب أن تحدث هذه المعاني ألفاظ غير الألفاظ التي ألفها القدماء رقت حاشية الحياة الحديثة وظهر فيها للترف ولين العيش فيجب أن تصطنع الإلفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة . »

نخلص من ذلك إلى أن طبيعة العصر المادية والفكرية استلزمت شيوع التعبير الجديد والتصوير الجديد في الشعر القائم على التزاوج بين الأفكار وتوليد المعاني المستطرفة والغوص وراء الفكر الجديد .

ونعرض لبيتين قبلاً في غرض واحد وفي ظروف متحدة ومع اختلاف الشعارين . أما أولهما فأموى وأما آخرهما فعباسي فنرى فكيف تستعمل الكلمات العباسية في قطرات أنيقة من الصفة اللفظية والنعمومة التعبيرية تجاوباً مع البيئة نفسها التي تنفّس فيها حروف هذه الكلمات .

يقول الفرزدق :

وركب كأن الريح تطلب عندهم طاترة من جذبها بالعصائب

ويقول ابن المعتز :

والريح تجذب أطراف الرداء كما أفضى الشفيق إلى تنبيهه وسان

ألا ترى قوة الريح الأولى التي لها « نأر » قديم فهي تجذب العصائب جذباً تشدها شدة في بيت الفرزدق ، لكن هذه الريح في بيت ابن المعتز شفوفة عطوفة نهي في رقة وأناقة وهدوء لتنبه الوسنان بيد رقيقة لأنها رياح العصر وإنها نسيمات والعدوبة التي سيجعلها البديع بفتنه وألوانه تفيض رقة وعدوبة وانظر إلى طرفه من العبد يصف مخنية فماذا يقول ؟

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهراً

لأنها البيئة الجديدة المترفة الناعمة التي هي روض موقن عليه أردية ندية من روعبير .

لقد بدأ التصوير الشعري يأخذ في العصر العباسي طريق التكثيف الفني الذي يتدح الفكر حتى تنصهر الكلمة الفنية في بوتقة خيالية جديدة ، كما كان الأمر عند أبي تمام مثلاً والذي أثار شعره جدلاً عنيفاً بين النقاد ، كما وجدنا شعراء يرقصون شعرهم بالنغم كالبحرئى مثلاً ، ووجدنا شعراء يتأثرون بثقافة يونانية كابن الرومي في استقصاءاته وتحليلاته ، ودوراته حول المعنى حتى يستوفيه من جميع نواحيه .

كما كان للفرس تأثيرهم أيضاً يحدثنا عنه كارل بروكلمان قائلاً : وقد رجحت كفة هؤلاء العجم في الدولة العباسية وسرعان ما ظهر أيضاً تأثيرهم في آداب العرب تنقلت أناة التعبير ورقة الذوق في أساليب الشعر البدوي باطراد ، حتى أمكن أن تتلاشى طبيعة ذلك الشعر البدوي بعد ثلاثة قرون (١) .

ويقول الدكتور أحمد أمين : « وما يجب التنبيه له أن كثيراً من حاملي لواء الأدب في ذلك العصر من شعراء وكتاب كانوا من أصل فارسي من ناحية الأبوين معاً أو أحدهما ، ثم تعلموا اللغة العربية وحذقوها ، فكان تجديدهم للأدب مديناً للفرس والعرب معاً ، فأدخلوا على الأدب العربي عناصر جديدة لم تكن ، فيشار الفارسي يخترع تشبيهات جديدة لم يستعملها العرب ، وأبو العتاهية زعيم الشعر الديني والسابق إليه من الموال ، وأبو نواس المتخصص في الخمر وما إليها هو نصف فارسي . وكذلك الشأن في الكتاب وما أدخلوا من أساليب كابن المقفع وسهل بن هارون . كل هؤلاء من أصل فارسي ، أو ما يقرب منه ، فما أتجهوه من غير شك نتاج الأصل الفارسي ، والثقافة العربية وملون بالحياة الاجتماعية التي كان يعيشها في العراق (٢) .

ظل هذا الازدهار الشعري مركزاً في عاصمة العباسيين « بغداد » حتى نهاية عصر المتوكل والذي يطلق عليه المؤرخون « العصر العباسي الأول » وما بعده حتى نهاية الدولة العباسية سنة ٦٥٦ يطلقون عليه « العصر العباسي الثاني » . وإن كنا نفضل أن نسمى هذا العصر الثاني بعصر الدويلات الإسلامية ، حيث تعددت المجتمعات العربية في إماراتها المختلفة . ويتجمع الشعراء في بلاط كل أمير وإن كان الشام والعراق ظلنا رائدتين لهذه التجمعات .

(١) تاريخ الأدب العربي ترجمة عبد الحلیم النجار ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ٧٨ .

ففي مجتمع الحمدانيين بحلب ارتفع صوت المتنبي مشيداً بانتصارات سيف الدولة الحمداني في حروبه ضد الروم ، كما وجدنا صوت الشاعر ، أبي فراس الحمداني ، في أشهر ما عرف له من قصائد قالها في أسره .

من ذلك ندرك أن عصر الدويلات الإسلامية على الرغم من السمة السياسية ووجود الأقاليم التي تتميز بشبه استقلال عن الدولة العباسية التي انعكس ظلمها في بغداد وما حولها ، فإن الشعر والفن بوجه عام ظل باسقاءً ونضراً نتيجة اهتمام الأمراء والحكام بحركة الأدب إما عن تذوق فني كان يمتاز به هؤلاء الحكام ، وإما استكمالاً لمظاهر الحكم والتي كانت تستلزم أن يكون للحكام شعراء يشيدون بهم .

نستطيع على ذلك أن نقول بأن روح الشعر ظلت خنفاة وتضم بين جناحيها النثر بفتوته المختلفة ، فعلى سبيل المثال نجد صوت أبي العلاء المعري وقد امتزج بالفلسفة والحكمة في نظراته التي شملت البعد الإنساني والتاريخي سواء في شعره أو نثره .

ولعل رسالة الغفران ، نموذج لموقف الشاعر النائر من مجتمعه ومن مسائل مختلفة في الوجود الإنساني كله .

وإذا كان المشرق العربي ظل النموذج والمثال أمام الأقاليم المختلفة فإن الأندلس استطاعت أن تواكب التيار الفني مقلدة هذا المشرق أحياناً محتذية شعراءه ، مستقلة بروحها الخاصة أحياناً أخرى كما في شعر الطبيعة الذي ازدهر على يد شعراء الأندلس ، بالإضافة إلى ابتكارهم أشكالاً شعرية جديدة فيما عرف باسم الموشحات .

يضاف إلى ذلك الحركة العقلية الضخمة التي نجدها في كتابات ابن رشد وغيره وكانت الأندلس منارة علمية يفتد إليها أهل الغرب لينهلوا من الثقافة العربية التي تعهدتها الأندلسيون ، وكان نثر الغربي أن يتثقف على يد هؤلاء العرب في الأندلس العربية .

وظل هذا الازدهار الأدبي قائماً في مختلف الأقاليم ، حتى وفد إلى مصر هرباً من محاكم التفتيش في الأندلس بعد سقوط الحكم العربي بها ، وهرباً من التتار بعد سقوط دولة العباسيين ، فأكرمت مصر وفادته وحاولت أن تمدّه بطاقة من الأمل لأن زحف الظلام القادم من الغزو للمغربي فرضت ظلها وقامها عليه فترة من الزمن حتى جاء العصر الحديث بنهضته الأدبية المعروفة .

وصف صديق

لابن المقفع

- ١ -

عميد : ابن المقفع فارس الاصل ، نشأ في البصرة وفيها قتل سنة ٧٥٩ م .
كتب لبعض الامويين وادب ابناءهم ، وأسلم على أيديهم ثم تورط في أفكار
شعبوية زمن الخليفة أبي جعفر المنصور .
وقد ظهر ذلك في بعض ما كتب . حين كان معجباً بحضارة قومه الفارسيين وله
إنتاج أدبي كبير كشف فيه عن عيوب المجتمع الإسلامي في زمنه ووضع أسساً ونظماً
لإصلاح هذه الحال ، ولعل ذلك أو بعضه من أسباب قتله .
أشهر كتبه : كلیلة ودمنة ، حيث ترجمه من الفارسية إلى العربية ، وله كتاب
الادب الكبير ، والادب الصغير ، ورسالة الصحابة ، وغيرها .

النص

إِنِّي مُخْبِرُكَ عَنِ صَاحِبِ لِي كَانَ أَكْبَرَ النَّاسِ فِي عَيْنِي وَكَانَ
رَأْسَ مَا عَظَّمَهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ .
كَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ ، فَلَا يَدَّشَهُ مَا لَا يَجِدُ ،
وَلَا يُكْتَبِرُ إِذَا وَجِدَ . وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ فَرْجِهِ فَلَا يَدْعُو
إِلَيْهِ رِيْبَةً ، وَلَا يَسْتَخِفُّ لَهُ رَأْيًا وَلَا بَدَنًا . وَكَانَ لَا يَأْتُرُ^(١) عِنْدَ
نِعْمَةٍ وَلَا يَسْتَكِينُ عِنْدَ مُصِيبَةٍ وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ لِسَانِهِ ،
فَلَا يَتَكَلَّمُ بِنَالٍ لَا يَعْلَمُ ، وَلَا يَمَارِي^(٢) فِيمَا عِلْمٌ . وَكَانَ خَارِجًا مِنْ

(١) يَأْتُرُ : يبيطُر .

(٢) يَمَارِي : يجادل .

سُلْطَانِ الْجِهَالَةِ فَلَا يَتَقَدَّمُ أَبَدًا إِلَّا عَلَى نِقْمَةٍ عِنَقَمَةٍ . وَكَانَ
أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتًا فَإِذَا نَطَقَ بَدَّ الْقَائِلِينَ . وَكَانَ يُرَى ضَعِيفًا
مُسْتَضْتَفًا ، فَإِذَا جَدَّ الْجِدَّ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِيًا . وَكَانَ لَا يَدْخُلُ فِي
دَعْوَى ، وَلَا يُشَارِكُ فِي مِرَاءٍ ، وَلَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَرَى قَاضِيًا
فَهِيمًا ، وَشَهُودًا عُدُولًا ، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا عَلَى مَا قَدْ يَكُونُ
الْمُدْرُ فِي وِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا اغْتِدَارُهُ . وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعَهُ
إِلَّا إِلَى مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ الْبُرَى ، وَلَا يَسْتَشِيرُ صَاحِبًا إِلَّا مَنْ يَرْجُو
عِنْدَهُ النَّصِيحَةَ ، وَكَانَ لَا يَتَبَرَّمُ^(١) وَلَا يَنْسَخُطُ وَلَا يَتَشَكَّى
وَلَا يَتَشَهَّى ، وَكَانَ لَا يَنْقِمُ عَلَى الْوَلِيِّ وَلَا يَغْفُلُ عَنِ الْمَدْوِ ،
وَلَا يَخْصُ نَفْسَهُ دُونَ إِخْوَانِهِ بِشَيْءٍ مِنْ اهْتِمَامِهِ وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ .
فَعَلَيْكَ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِنْ أَطَقْتَهَا - وَلَنْ تَطِيقَ - وَلَكِنْ
أَخِذْ الْقَلِيلَ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْجَمِيعِ .

- ٢ -

وصف صديق

لصادق عنبر

تمهيد : صادق عنبر من أدباء العصر الحديث مات مبكراً وكان مقلداً في كتابته مع
التأنيق الشديد فيما يكتب وقد كتب القطعة المذكورة تحت عنوان « أدب عصرين »
يصف صديقاً له مهتدياً، كما يقول - بهدى ابن المقفع في وصفه السابق .

(١) يتبرم : يضرع .

النص

إِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنْ صَاحِبٍ لِي مَلَأَتْ مِنْهُ يَدِي ، وَطَوَّيْتُ عَلَى حُبِّهِ
نَفْسِي ، وَجَمَلْتُهُ ضَيْئِي مِنْ بَيْنِ صَحْبِي .

فَقَدْ كَانَ بَصِيرًا بِوَرْدِ الْأُمُورِ وَصَدْرَهَا ، يَعْرِفُ مِنْ مُطَّلَعِ
كُلِّ أَمْرٍ مَا يَكُونُ مَقْطَعُهُ ، وَتَقُومُ أُذُنِي فَرَّاسَةً مِنْهُ مَقَامَ الْبَيْتَةِ
وَيُصِيبُ بِالظَّنِّ مَا يُخْطِئُ غَيْرَهُ بِالْمِيَانِ .

كَانَ أَكْثَمَ مَا يَكُونُ لِلسَّرِّ إِذَا بَاحَتْ الْأَلْسِنَةُ مِنَ الْأَسْرَارِ
بِعَصُونِهَا ، وَانْفَرَجَتْ صُدُورُ الثَّقَاتِ عَنْ مَكْنُونِهَا .

كَانَ أَيْبًا لَوْ خُطِبَتْ لَهُ إِمَارَةٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَهْرُهَا ذُلٌّ سَاعَةً
لَأَثَرَ أَنْ يُزَفَّ إِلَى قَبْرِهِ عَلَى أَنْ تُزَفَّ إِلَيْهِ الْإِمَارَةُ .

كَانَ صَلْبَ الْعُودِ عَلَى النُّوبِ ، إِذَا زَمَاهُ الدَّهْرُ بِخُطْبِ يَبْلُوهُ ،
مِطْلَى مِنْهُ الْخُطْبُ بِالنَّفْسِ الْمُرَّةِ وَالخُلُقِ الْوَعْرِ وَالصَّدْرِ الْفَدَى
تَضِلُّ فِي سَاحَةِ صَبْرِهِ كُلِّ نَائِبَةٍ .

كَانَ مُتَوَرِّعًا لَا يَقُومُ مَقَامًا يَقَعُ عَلَيْهِ ظِلُّ رَيْبَةٍ وَلَا يَقِفُ
مَوْقِفًا تَسْعَبُ فِيهِ ذِلَالًا مُشْبِهَةً ، وَلَا يَقُولُ قَوْلَةً أَوْ يَنْظُرُ
نَظْرَةً تَعْقِبُهَا ظَنَّةٌ .

كَانَ كَرِيمًا جَمَّ الْإِشَارِ ، يَطْوِي بَطْنَهُ عَنْ جَارِهِ وَلَا يَمْلِكُ

مِنْ مَالِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَمْلِكُ مِنْهُ إِخْوَانُهُ .

كَانَ يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ ، فَمَا أَكَلَ قَبْلَ الشَّبَعِ ، وَلَا شَرِبَ
إِلَّا دُونَ الرَّيِّ ، وَلَا لَبَسَ مُمَنَّمًا وَلَا مُعْلَمًا ، وَلَا تَوَسَّدَ حَرِيرًا
وَلَا وَهَبْرًا ، وَكَانَ فِيهِ عِزَّةُ الْمَلِكِ وَعَلَيْهِ سِيَمَى الزَّاهِدِينَ .

كَانَ فَتِيًّا وَلَسَكِنَ هِمَّتُهُ كَانَتْ تَرْمِي بِهِ وَرَاءَ سِنِّهِ ، وَهُوَ
يَرْمِي بِهِمَّتِهِ حَيْثُ أَشَارَ إِلَيْهِ السُّوَدُودُ .

كَانَ بَاهِرَ الْأَدَبِ يُشِيرُ عَلَيْكَ مُوَهَّمًا أَنَّهُ يَسْتَشِيرُكَ ، وَيَدُلُّكَ
عَلَى الرَّأْيِ وَكَأَنَّهُ يَسْتَدِلُّ بِكَ عَلَيْهِ ، وَيُرِيكَ مَقْطَعَ الْحَقِّ وَيَدْعُ
لَكَ أَنْ تَقْطَعَ مِنْ دُونِهِ ، وَلَوْ رَأَيْتَهُ وَقَدْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَفِدًّا
لِحَسْبَتِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُسْتَفِيدِ مَائِلًا ، أَوْ سَمِعْتَهُ وَهُوَ يُجِيبُ
مَسْئُولًا لِحَسْبَتِهِ سَائِلًا .

كَانَ أَمْلَكَ مَا يَكُونُ لِنَفْسِهِ إِذَا رَضِيَ ، وَلِجَلْمِهِ إِذَا غَضِبَ ،
وَلِجَدِّهِ إِذَا لَمِبَ ، وَلِوَقَارِهِ إِذَا طَرِبَ .

كَانَ طَوِيلَ الصَّمْتِ كَانَ بِلِسَانِهِ عَوَجًا فَإِذَا نَطَقَ اسْتَقَامَ
عَلَى نَهْجٍ مِنَ الْبَيَانِ تَتَرَاءَى فِيهِ حِكْمٌ تُأْخِذُ الْمَرْءَ قَبْلَ أَنْ
يَأْخُذَهَا .

كَانَ قَلِيلًا مَا يَكْتُبُ ، فَإِذَا مَضَى عَنْ كِتَابٍ كَانَ الْكِتَابُ

مِنْ يَدِكَ إِلَى عَقْلِكَ إِلَى رُوحِكَ ، كَالزَّهْرَةِ النَّاضِرَةِ تَرَاهَا نَسِيحًا
فِي أَنَامِكَ حَرِيرُهُ ، ثُمَّ تَعْرِفُهَا طَيِّبًا فِي أَنْفِكَ عَيْبَرُهُ ثُمَّ تُدْرِكُهَا
شِعْرًا فِي نَفْسِكَ وَحْيُهُ وَتَعْبِيرُهُ .

كَذَلِكَ كَانَ صَاحِبِي ، وَلِبَعْضِ تِلْكَ الْخُلَلِ يُكَبِّرُ الرَّجُلَ
الرُّجُلَ ، وَلَسْكَنَّهُ :

صَفَرْتُ كَفَى مِنْهُ وَمَضَى وَقَدْ أُمَّتَلَّتْ مِنِّي يَدُهُ

نشأة طفلين

لمحمد بن عبد الرحمن الهاشمي

تمهيد : و البرامكة ، أسرة استولت على السياسة والملك في عهد هرون الرشيد ، وكان لهم السلطان الفعلي في البلاد وظهر منهم في أوائل الدولة العباسية ، خالد بن برمك ، الذي تقلد الوزارة في عهد السفاح والمنصور واتخذ هرون الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلي الخلافة كاتباً له ، يرجع إلى رأيه وتديبره كما يرجع الخليفة إلى رأى الوزير وتديبره .

وكان يحيى بن خالد البرمكي أشهر رجال عصره علماً وأدباً وفضلاً وجوداً ونبلاً ، ولما قلد هرون كاتبه المخلص الوفي الوزارة بعد اعتلائه العرش وفوض إليه أمور دولته ، واستعان بأولاده الأربعة وهم : جعفر والفضل ومحمد وموسى .

— ونهض يحيى بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور وتدارك الخلل وعمر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة .

وكان الفضل ، أكبر أولاد يحيى — من كرام أهل عصره ، وكان عضد أبيه ينوب عنه في جلائل أعماله ، ولما ولد الأمين عهد الرشيد للفضل بتربيته . ولاه هرون الرشيد بلاد خراسان ففضى هلى الفتنة التي قامت بها وأحسن معاملة أهلها ، وبنى بها المساجد ثم عاد إلى بغداد بعد سنة .

— واشتهر جعفر بن يحيى بالفصاحة والفتنة والحلم والكرم وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه ، ويؤثره على أخيه الفضل لشراسته أخلاقه .

وهكذا صار لأسرة البرامكة بصفة عامة وليحيى بن خالد وولديه : جعفر والفضل بصفة خاصة منزلة عالية في عهد الرشيد فانصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم .

قيل : إن الرشيد حجج ومعه يحيى وأبناء الفضل وجعفر فلما وصلوا إلى المدينة المنورة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه جعفر فأعطيا الناس ، وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الاعطيات الثلاث حتى كانوا يسمون هذا العام اعطيات الثلاث .

الآن نستمتع من محمد بن عبد الرحمن الهاشمي يقص لنا جانباً من طفولة هذين

العظيمين : جعفر والفضل :

النص

محمد بن عبد الرحمن الهاشمي

قال : كانت أم جعفر بن يحيى تزور أمي وكانت ليبة من النساء ،
حازمة برزة^(۱) . يعجبني أن أجدّها عند أمي فأستكثر من حديثها ،
فقلت لها يوماً : يا أم جعفر : إن بعض الناس يفضل جعفرًا على
الفضل ، وبمضهم يفضل الفضل على جعفر فأخبريني . فقالت : ما زلنا
نمرف الفضل للفضل فقلت : إن أكثر الناس على خلاف هذا فقالت :
هأنا أهدمك وأفض أنت ، وذلك الذي أردت منها . فقالت : كانا يوماً
يلعبان في داري فدخّل أبوها فدعا بالعداء وأحضرهما ، فطعمهما
ثم آتسهما بحديثه ، ثم قال لهما : أتلعبان بالشطرنج ؛ فقال ، جعفر
وكان أجراًهما : نعم ا قال : فهل لاعبت أخاك بها ؟ قال جعفر : لا ا قال :
فالتعبا بها بين يدي لأرى لمن الغلب . فقال جعفر : نعم ا وكان الفضل
أبصر منه بها . فحجى ، بالشطرنج فصفت بينهما ، وأقبل عابها جعفر
وأعرض عنها الفضل . فقال له أبوه : مالك لا تلعب أخاك ؟ فقال :

(۱) البرزة : الكيلة الجميلة تبرز للنوم يجلسون اليها يتحدثون اليها وهي

عفيفة .

لَا أَحِبُّ ذَلِكَ فَقَالَ جَعْفَرٌ: إِنَّهُ يَرَى أَنَّهُ أَعْلَمُ بِهَا مِنِّي فَيَأْتِفُ مِنِّي
مُلَاعَبَتِي، وَأَنَا الْأَعْبَةُ مُخَاطَرَةٌ^(٢).

فَقَالَ الْفَضْلُ: لَا أَفْعَلُ. فَقَالَ أَبُوهُ: لَاعِبُهُ وَأَنَا مَمَكٌ. فَقَالَ
جَعْفَرٌ رَضِيحًا. وَأَبِي الْفَضْلُ وَاسْتَعْفَى^(٣) أَبَاهُ فَأَعْفَاهُ ثُمَّ قَالَتْ لِي: قَدْ
حَدَّثْتَنِي فَأَقْضِ. فَقُلْتُ: قَدْ حَقَّقْتُ بِالْفَضْلِ لِلْفَضْلِ عَلَى أَخِيهِ.
فَقَالَتْ: لَوْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ الْقَضَاءَ لِمَا حَكَمْتُكَ. أَفَلَا تَرَى
أَنَّ جَعْفَرَ أَقْدَمَ سَقَطَ أَرْبَعِ سَقَطَاتٍ تَنْزَهُ الْفَضْلُ عَنْهُنَّ: فَسَقَطَ حِينَ
اعْتَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ يَلْعَبُ بِالشَّطْرِ نَجًّا، وَكَانَ أَبُوهُ صَاحِبَ جِدٍّ^(٤).
وَسَقَطَ فِي الزَّمَامِ مُلَاعِبَةَ أَخِيهِ، وَإِظْهَارِ الشُّهُورَةِ لِفَلْبِهِ، وَالتَّمَرُّضِ
لِعُضْبِهِ. وَسَقَطَ فِي طَلَبِ الْمُعَامَرَةِ وَإِظْهَارِ الْحِرْصِ عَلَى مَالِ أَخِيهِ.
وَالرَّابِعَةُ قَاصِمَةُ الظَّهِيرِ حِينَ قَالَ أَبُوهُ لِأَخِيهِ: لَاعِبُهُ وَأَنَا مَمَكٌ.
فَقَالَ أَخُوهُ لَا، وَقَالَ هُوَ نَعَمْ؛ فَنَاصَبَ^(٥) صَفًّا فِيهِ أَبُوهُ وَأَخُوهُ، فَقُلْتُ:
أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ وَإِنَّكَ لِأَقْضَى مِنَ الشَّعْبِيِّ^(٦) ثُمَّ قُلْتُ لَهَا: عَزَمْتُ^(٧)

-
- (٢) المخاطرة : المراهنة .
(٣) استعفاه : طلب منه الا يكلفه اياه .
(٤) الجد : ضد الجزل .
(٥) ناصبه : عاداه وقادمه .
(٦) الشعبي : أحد رجال الحديث والقضاء .
(٧) عزمت عليه : أقسمت .

عليك الخلو فاني هو اهل الحق مثل هذا حتى جعفر وقد فطن له اخوه
فقالوا لولا اننا لم نكن نعلم ان ابائنا لما خرجت اوقات لافضل
خالفة: يعني ما تقدمك امن لاختلال الشرور على اهلك فملا به اخيك
فقال عمران: الحمد لله الذي لا يحبني الا بحبته فانا خطيئة، والذاني قول
ابي لا عيب وانا معك، فابسرني ان يكون ابي معي حتى اخرجت من اهل
بجته فقلت له: يسأل ابوك عن اللعيب بالمشعر نج فيصمت اخوك
واعتق فب ووابولك ضاحك جدا، فقال: اني سمعت ابي يقول: نعم القفة
لهو البلك الميسكلا ووا (٨) فوجدت ما نلقاه من جد التعلّم وتلاذب ولم
امن ان يكون بلغه انا نلعب بها، ولا ان يباجر فينكر، فبادرت
بالاقرار اشفافا على نفسي وعليه وقلبت ان كان توبيع فديته من
المواجهه له. فقلنا للمجدد ابني: قلتم تقول الاعمى مخاطرة له كرا نك
تقامر اخاك وتستره كثير ماله، فقال: بن كبري ولا يكنه يستحسن الدواة التي
وهبها لي امير المؤمنين، فمرضتها عليه قاني قبولها، وطبعت ان
يلاعبنى فأخاطره عليها وهو يعطيني فتطيب نفسه من عذبه فقامت
لها يا أمّاه، ما كانت هذه الدارة؟ فقالت: ان جعفر اذ دخل على امير
المؤمنين فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت

(٨) الكدود: ا. م. ب.

الأزرق والأصفر فرآه ينظر إليها فوهبها له . فقلتُ إليه . فقالت . ثم قلتُ لجعفر هَبْكَ اغْتَدَرْتَ بما سمِعتُ فما عُذْرُكَ مِنَ الرِّضَا بِمَنَاصِبَةِ أَيْكَ حِينَ قَالَ لِأَعِيْبِهِ وَأَنَا مَعَكَ ؟ فقلتُ أَنْتَ : نعم ، وَقَالَ هُوَ : لا . فَقَالَ : عَرَفْتُ أَنَّهُ غَالِبِي . وَلَوْ قَتَرَ لَعِيْبِهِ لَتَغَالَبْتُ لَهُ مَعَ مَا لَهُ مِنَ الشَّرَفِ وَالشَّرَوْرِ بِتَحِيْزِ أَبِيهِ وَإِلَيْهِ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقُلْتُ : بَخِ بَخِ (٩) ، هَذِهِ وَاللَّهِ السِّيَادَةُ . ثُمَّ قُلْتُ لَهَا : يَا أُمَّهُ : أَمَا كَانَ مِنْهُمَا مَنْ بَلَغَ الْعِلْمَ ؟ فَقَالَتْ : يَا بَنِيَّ : أَيُّنَ يَذْهَبُ بِكَ ؟ أَخْبِرْكَ عَنْ صَبِيَّيْنِ يَلْعَبَانِ فَنَقُولُ : أَمَا كَانَ مِنْهُمَا مَنْ بَلَغَ الْعِلْمَ ، لَئِنْ كُنَّا نَنْهَى الصَّبِيَّ إِذَا بَلَغَ الْعَشْرَ وَحَضَرَ مَنْ يُسْتَحَى مِنْهُ أَنْ يَبْتَسِمَ .

التعليق

من قصة الهاشمي نعلم أن « الأسرة الطيبة » كانت وراء عظمة كل من جعفر والفضل . أب سياسي ماهر ، وأم لبيبة من النساء يستكثر الناس من حديثها ، ويتلفون على معرفة أخبارها ، وكانت آية في الذكاء . والدقة في إدراك جوانب النبوغ عند الآخرين ، والتوجيه إليه ، ترصد حركات أولادها ، تستمع إلى أحاديثهم ، ثم توجه توجيهات مناسبة ، تسأل وتناقش ، وتستمع وتحاور ، وخلال ذلك تصدر الأحكام الموجهة .

وقد رأينا ثمرة الوراثة والبيئة ، والتربية في تصرفات الطفلين جعفر والفضل ، إن كلا منهما يتصرف تصرفا يعجز عنه الرجال ، وتقتصر دونه عقول الأذكيا به العاديين من الناس !!

(٩) بَخِ . بَخِ : اسم فعل للمرح واطهار السرور بالشيء .

ونلاحظ من سياق القصة احترام الولدين لوالدهما ، وحرصهما على إرضائه بأقوالهما وأعمالهما !! والاستحياء من الآخرين واحترامهم .

كما نلاحظ حب الطفلين كل منهما لأخيه ، وتحسس رغباته ، والمحافظة على مشاعره - وتقديم الجميل إليه دون تباها أو من !! .

وكان نوع اللعب الذي يشغل به الطفلان نفسيهما لعباً مفيداً . . .

وكانت الهدايا التي تقدم للأطفال هدايا لها مغزاها وأثرها في التوجيه العلمي ، والحث على الاستزادة من القراءة والكتابة وكانت الاجتماعات التي ينشأها الأطفال اجتماعات مشمرة تفيد في البناء النفسي .

ومن هنا أثرت هذه التربية ثمرتها فكراً وقولاً وعملاً ، وهيأت النشء للرياسة وتولى أمور الدولة وإدارتها سياسياً واجتماعياً فنهضوا بها وحققوا لها تقدماً وازدهاراً ! (هـ)

رسالة الترييح والتدوير

للجاحظ

تمهيد : الجاحظ . كاتب نابه ، وعالم أديب . وهو بعلمه وأدبه يوضع على قمة الكتاب في العصر العباسي الاول .

والجاحظ من أصل عربي ولد بالبصرة ١٥٩ هـ ونشأ بها نشأة فقيرة ، وكان مشغولاً منذ حداثةه بقراءة الكتب لا يقع في يده كتاب إلا أتى عليه ، وكان يكثر دكاكين الوراقين ، (المكتبات) ويبيت فيها للقراءة ، والبحث ، وبذلك صار نابغة عصره . دائرة معارف ، يعرض في كتاباته ألواناً من الثقافات الهندية ، والفارسية واليونانية والعربية ، ويتعرض لقرونها المختلفة : الدينية ، والأدبية ، والعلمية ، ويشكل كل ثقافة من هذه الثقافات بفروعها المتعددة ، ففي الدين يعرض : للقرآن والحديث ، والتفسير ، والفرق الإسلامية ، والحكمة الهندية . . .

وفي الأدب : يعرض للشعر والنثر ، وينقد النص : ويوازن بين الشعراء . . .
وفي العلم : ينظر ، ويبحث ، ويستقرئ ، ويجرب ، ويجادل ، ويحاور . . .
وتجد الطابع اليوناني قد صبغ ثقافته بصفة عامة .
وانتقل الجاحظ من النظر والقراءة . إلى التأليف ، فكان من نتاجه العلمي :
كتاب الحيوان ، والبيان والتبيين ، والبخلاء ،

وكان حكام عصره يقدرون مؤلفاته ويغدقون له في العطاء كلما ظهر له مؤلف جديد . إذا أكرمه هؤلاء الحكام بصدافته لهم من جهة ، وإعجابهم بعلمه وأدبه من جهة أخرى .

ولم يعجب بكتابات خاصة رجال السياسة والعلم والأدب والبلاغة والفلسفة فقط بل شاركهم عامة الناس كذلك ، وربما كان السبب في ذلك ما امتاز به الجاحظ من التندر والدعابة . وما خلط فيها بين جد وهزل واستطرد وترويح عن القراء .

وقد عمر الجاحظ . ومات نحو ٩٦ عاماً وكانت وفاته سنة ٢٥٥ هـ .

وهذه مقتطفات من رسالته « الترييع والتدوير » التي جمع فيها الجاحظ بين حسن
النسكرة . وأناقاة العبارة ؛ قالها في هجاء معاصره له مغرور بنفسه اسمه « أحمد بن
عبد الوهاب » كان ، كما وصفه الجاحظ « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ،
ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب . وليس في يده من جميع الآداب إلا
انتحال اسم الآداب .

وكان أحمد بن عبد الوهاب يخاشن الجاحظ ويطاوله ويحسده ؛ فرد عليه الجاحظ
بهذا الهجاء الطريف الذي صاغه في صورة لم يعرف بها أحد قبل الجاحظ

النص

١ - « كان أحمد بن عبد الوهاب مُفْرِطَ الْقِصْرِ ، وَيَدْعِي أَنَّهُ
مُفْرِطُ الطَّوْلِ ، وكان مُرَبِّعًا وَتَحَسُّبُهُ لِسَمَةِ جَفْرَتِهِ ^(١) وَاسْتِفَاضَةَ
خَاصِرَتِهِ مُدَوَّرًا ، وكان جَمَعَ الْأَطْرَافِ قَصِيرَ الْأَصَابِعِ ، وهو
في ذَلِكَ يَدْعِي السَّبَّاطَةَ وَالرَّشَاقَةَ ، وَأَنَّهُ عَتِيقٌ ^(٢) الْوَجْهِ أَخْصُ
الْبَطْنِ ، مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ تَامَ الْعَظْمِ ، وكان طَوِيلَ الظَّهِرِ قَصِيرَ عَظْمِ
الْفَجْدِ ، وهو مع قِصَرِ عَظْمِ سَائِهِ يَدْعِي أَنَّهُ طَوِيلُ الْبَادِ ^(٣) رَفِيعُ
الْعِمَادِ ^(٤) ، عَادِيُ الْقَامَةِ عَظِيمُ الْهَامَةِ ، قد أُهْطِيَ الْبَسْطَةُ فِي
الجِسْمِ ، وَالسَّعَةِ فِي الْعِلْمِ ، وكان كَبِيرَ السِّنِّ مُتَقَادِمَ الْمِيلَادِ ، وهو
يَدْعِي أَنَّهُ مُعْتَدِلُ الشَّبَابِ حَدِيثُ الْمِيلَادِ » .

(١) جفرتة : وسطه .

(٢) عتيق : كريم .

(٣) الباد : يقصد طويل القامة .

(٤) رفيع العماد : أعمدة الحيمة كناية عن الطول .

٢ - « وبعد - أبقاك الله - فأنت في يدك قياس لا ينكسر،
وجواب لا ينقطع ، ولك حد لا يفله ، وغرب^(٥) لا ينثنى ، وهو
قياسك الذي إليه تُنسب ، ومذهبك الذي إليه تذهب ، أن تقول :
وما على أن رآني الناس عريضا ، وأكون في حكمهم غليظا ،
وأنا عند الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق ، وقد
علموا - أبقاك الله - أن لك مع طول الباد ركباً طول الظهر
جالسا ولكن بينهم فيك - إذا فمت - اختلاف ، وعليك لهم
- إذا اضطجعت - مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، وبديع
ما أوتيت أنا تم نر مقودا^(٦) واسع الجفرة غيزك ، ولا رشيقا
مستفيض الحاصرة سواك ، فأنت المديد وأنت البسيط وأنت
الطويل وأنت المتقارب^(٧) ، فيا شعرا جمع الأعاريض ويا شخفا
جمع الاستدارة والطول ، بل ما يهملك من أقاويلهم ، ويطماظمك
من اختلافهم ، والراسخون في العلم ، والناطقون بالفهم يعلمون
أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع منك ، وأن
ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا »

(٥) غرب : حد السيف

(٦) مقودا : مشقوقا

(٧) من البحور : التي يأتي الشعر على وزنها .

٣ - « وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا أَنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ فِي الْجُمْلَةِ
وَعِنْدِ الْوَصْفِ وَالْمِدْحَةِ : هُوَ أَحْسَنُ مِنَ الْقَدْرِ ، وَأَضْوَأُ مِنَ الشَّمْسِ
وَأَبْهَى مِنَ النُّجُومِ ، وَأَنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ فِي التَّفَارِيقِ كَأَنَّ
عُنُقَهُ إِبْرِيْقُ فِضَّةٍ ، وَكَأَنَّ قَدَمَهُ لِسَانُ حَيَّةٍ ، وَكَأَنَّ عَيْنَهُ أَوْيَّةٌ ^(٨)
وَكَأَنَّ بَطْنَهُ قَبْطِيَّةٌ ^(٩) وَكَأَنَّ لِسَانَهُ وَرَقَةٌ ، وَكَأَنَّ أَنْفَهُ حَدُّ سَيْفٍ
وَكَأَنَّ حَاجِبَهُ خُطٌّ بِقَلَمٍ ، وَكَأَنَّ لَوْنَهُ الذَّهَبُ ، وَكَأَنَّ عَوَارِضَهُ ^(١٠)
الْبَرْدُ ، وَكَأَنَّ فَاةَ خَاتَمِهِ ، وَكَأَنَّ جَبِينَهُ هِلَالٌ ، وَلَهُوَ أَظْهَرُ مِنَ
الْمَاءِ ، وَأَرْقُ طِبَاعًا مِنَ الْهَوَاءِ ، وَلَهُوَ أَمْضَى مِنَ السَّيْلِ ، وَأَهْدَى
مِنَ النُّجُومِ ، لَكَانَ فِي ذَلِكَ الْبُرْهَانُ النَّيِّرُ وَالِدَّلِيلُ الْبَيِّنُ ، وَكَيْفَ
لَا يَكُونُ ذَلِكَ ، وَأَنْتَ الْغَايَةُ فِي كُلِّ فَضْلٍ ، وَالنَّهْيَةُ فِي كُلِّ
شَكْلِ ، وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

... فَإِنَّمَا ذَلِكَ مَعْنَى مَسْرُوقٍ مَعْنَى فِي وَصْفِكَ ، وَمَأْخُودٍ

مِنَ كُتُبِي فِي مَدْحِكَ ، وَمَنْ يَطْمَعُ فِي عَيْبِكَ ، بَلْ مِنْ يَطْمَعُ فِي
قَدْرِكَ ، وَكَيْفَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ وَمَا عَلَيَّ بِظَهْرِهَا خُودٌ ^(١١) إِلَّا وَهِيَ

(٨) عاوية : لامعة كثيرة

(٩) قبضية : رقيقة ناعمة

(١٠) العوارض : الأسنان

(١١) خود : الشابة الحسناء

تَتَعَتَّرُ بِأَنفِهِ وَلَا قِيِنَّةٌ إِلَّا وَهِيَ تُغْنِي بَعْدَكَ وَلَا فِتْنَةٌ إِلَّا وَهِيَ
تَشْكُو تَبَارِيحَ^(١٢) حُبِّكَ ، وَلَا مَعْجُوبَةٌ إِلَّا وَهِيَ تَنْقُبُ الْخُرُوقَ
إِمْرَكَ ، وَلَا عَجُوزٌ إِلَّا وَهِيَ تَدْعُوا لَكَ ، وَلَا غِيورٌ إِلَّا وَقَدْ
شَقِيَ بِكَ

٤ - « وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْقَمَرَ هُوَ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْأَمْثَالُ
وَبُشْبَهَهُ بِهِ أَهْلُ الْجَمَالِ وَمَعَ ذَلِكَ يَبْدُو ضَعِيفًا نِضْوًا^(١٣) ، وَمُهُوجًا
شَخْتًا^(١٤) وَأَنْتَ أَبَدًا قَمَرٌ بَدْرٌ فَخَمُّ غَمْرٍ ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ يَحْتَرِقُ
فِي السَّرَارِ ، وَيُنْتَشَأُ مِنْهُ فِي الْمِحَاقِ ، وَيَكُونُ نَحْسًا كَمَا يَكُونُ
سَمَدًا ، وَيَكُونُ نَقْمًا كَمَا يَكُونُ ضُرًّا . . . وَأَنْتَ دَائِمُ الْبُيُوتِ
ظَاهِرُ السَّعَادَةِ ، ثَابِتُ الْكَمَالِ شَائِعُ النِّفْعِ ، تَكْسُو مِنْ عَرَاهِ ،
وَتَكْنِ^(١٥) مِنْ أَشْحَابِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ قَدْ حَقَّ حُسْنُهُ الْحَقُّ ، وَشَانَهُ
الْكَلْفُ ، وَلَيْسَ بِذِي تَوْقِدٍ وَلَا اشْتِمَالٍ ، وَلَا خَالِصَ الْبَيَاضِ ،
وَلَا بِمُتَلَالِيٍّ ، وَيَمْلُوهُ بَرَدٌ^(١٦) وَيَكْسُوهُ ظِلُّ الْأَرْضِ ، ثُمَّ لَا يَمْتَرِيهِ
ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ كَمَالِهِ ، وَلَيْلَةٌ فَخْرِهِ وَاخْتِفَالِهِ ، وَكَثِيرًا مَا يَمْتَرِيهِ

(١٢) تَبَارِيحُ الْحُبِّ : تَوْهَجُهُ وَشِدَّتُهُ .

(١٣) نِضْوًا : هَزِيلًا .

(١٤) شَخْتًا : قَدَا ضَامِرًا .

(١٥) تَكْنِ : تَخْفَى .

(١٦) بَرَدٌ : حُبُّ الْعَمَامِ يَنْزِلُ مَعَ الْمَطَرِ .

الصَّفَارِ^(١٧) من بُخَارِ البَجَارِ ، وَأَنْتَ ظَاهِرُ النَّمَامِ ، دَائِمُ الكَمَالِ ،
سَلِيمُ الجَوْهَرِ ، كَرِيمُ العِنَصْرِ نَارِي التَّوَقُّدِ ، هَوَائِي الذَّهْنِ ، ذُرِّي
اللَّوْنِ ، رُوحَانِي البَدَنِ ، عَلَيَّ أَنْ ضِيَاءَهُ مُسْتَعَارٌ مِنَ الشَّمْسِ ،
وَضِيَاءُكَ عَارِيَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الخَلْقِ ، فَكُمُ بَيْنَ المَعِيرِ وَالمُسْتَعِيرِ
وَالْمُتَبَيِّنِ وَالمُتَحَيِّرِ ، وَبَيْنَ العَالِمِ وَمَنْ لَاحِسٌ فِيهِ ، فَلَا زَالَتْ
الأَرْضُ بِكَ مُشْرِقَةً ، وَالدُّنْيَا مَعْمُورَةً ، وَمَجَالِسُ الخَيْرِ مَأْهُولَةً ،
وَنَسِيمُ الهَوَاءِ طَيِّبًا ، وَتَرَابُ الأَرْضِ عَبِقًا

٥ - « يَا قَعِيدَ الفَلَاحِ كَيْفَ أُمْسَيْتَ ، وَيَا قُوَّةَ الهَيُولَا كَيْفَ
أَصْبَحْتَ . . . زَعَمَ تَلَامِيذُكَ أَنَّكَ تَعْلَمُ : لِمَ كَانَ الفَرَسُ لاطْعَالِ
لَهَا ، وَلِمَ صَارَ البَعِيرُ لَامرَّارَةً لَهُ ، وَلِمَ كَانَتِ السَّمَكَةُ لارِثَةً
لَهَا . . . وَلِمَ قِيلَ أَعْقُ مِنْ ضَبٍّ وَأَبْرُثُ مِنْ هَرَّةٍ وَهَمَا جَمِيعًا
يَا كِلَانَ أَوْلَادَهُمَا . . . وَلِمَ نَامَتِ الأَزْنَبُ مَفْتُوحَةً العَيْنَيْنِ ؟
وَلِمَ أَكَلَتِ الذَّنْبُ صَاحِبَهُ إِذَا رَأَى بِهِ دَمًا ؟ . . . وَلِمَ زَعَمْتَ
أَنَّ عُمرَ نُوحٍ أَطْوَلَ الأَعْمَارِ مَعَ قَوْلِكَ : إِنَّ جَمِيعَ الأنبياءِ قَدْ
حَذَرْتُ مِنَ الدَّجَالِ وَأَنَّ الدَّجَالَ إِنْسَانٌ ؟ ! »

(١٧) الصَّفَارُ : النراد بضعف ضوءه السحاب الرقيق .

التعليق

أولاً : تعد هذه المقتبسات أجزاء متفرقة قليلة ، من رسالة متكاملة نادرة ممتدة عرضها لنا « الساسي » في كتاب عنوانه « رسائل الجاحظ » وعندما تقرؤها في مصدرها تجد عديداً من المعاني المتعاقبة التي ينتقل فيها الأديب من معنى إلى آخر انتقالاً رقيقاً في تسلسل وتماسك وفي هذه المقتبسات نجد :

١ - أن الفقرة الأولى تعتمد على المفارقة بين واقع احمد بن عبد الوهاب وحقيقته وبين ما يظنه هو في نفسه ، فهو قصير في الحقيقة ولكنه يدعى الطول ، وهو مربع مدور (١) ولكنه يزعم السباطة والرشاقة ، وعلى هذا النحو يعضي الجاحظ إلى أن يستوفي المعنى .

٢ - وفي الفقرة الثانية يتجاوز الحكم عليه نابحاً من رأيه في نفسه ومن واقعه إلى رأى الناس فيه ، والجاحظ في ذلك يجذب الجماهير إليه فيتحدث بلسانهم ويعبر عن رأيهم في أحمد بن عبد الوهاب ، ورأى أحمد بن عبد الوهاب في نفسه ، ويضع الصواب في جانبهم والتزوير ومجافاة الواقع في جانب احمد بن عبد الوهاب وهو في ذلك يستثير عواطف الجماهير ضده . فلأحمد بن عبد الوهاب قياس واحد للناس قياس واحد ، وله مذهب يختلف عن مذهب الناس ؛ فهو عند الناس عريض غليظ واسع الجفيرة مقدوداً فكيف به مكتملاً ؟ ، بل هو قد جمع بين الاستدارة والطول والسلك ، ويختتم هذا المعنى بفكرة طريفة عبر فيها عن تنازع طوله وعرضه ليقرر أنه ينمو عرضاً ولا ينمو طولاً ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً . .

٣ - وفي هاتين الفقرتين يعرض معنى واحداً ، وإن كان بينهما خلاف فهو من جانب المدرك والشخص الذي يحكم أهوال الجاحظ أم الناس ؟ .

أما الفقرة الثالثة فيمر فيها الجاحظ مرآة سريعاً على ملاحظه الحسية ليبالغ في جمالها مبالغة تشير التهمك اللاذع والسخرية المضحكة يتحول فيها الجمال ببراعة الجاحظ إلى قبح والمدح يسخ ليكون الهجاء ، فهو ينظر إلى أعلاه وأسفله ووسطه ليبرز تفاريق عنقه وقدمه ، ولسانه ، وبطنه ، وملاح وجهه جزءاً جزءاً ، ثم ليعود فيحكّم عليه كلا

(١) ومن هنا سمي الرسالة « رسالة التريبيع والتدوير » .

قد كونه هذه الأحكام الجزئية ليعبر على سبيل السخرية الجامعة ، أنه الغاية في كل فضل والنهاية في كل شكل :

يزيدك وجهه حناً إذا ما زدته نظراً ،

٤ - وفي الفقرة السابقة يعرض لعدة معان أو لعديد من الملاح . ولكنه هنا يصنع العكس يعرض لمعنى واحد ويوازن فيه بين جمال القمر وبهائه ، وجمال أحد بن عبد الوهاب وبهائه ، ويستوفي هذا المعنى استيفاءً يشير إعجابنا ، معتمداً على المفارقة أيضاً مع المبالغة المزدية إلى السخرية اللاذعة المرة المضحكة وهنا يشرك مظاهر الطبيعة معه في الحكم والإحساس ، فامضى من الفقرات كان الحكم هو ابن عبد الوهاب أو الجاحظ ، أو الناس ، واسكته هنا يدخل عنصراً رابعاً هو الطبيعة التي تقول ما يقول الجاحظ وترى ما يراه الناس جميعاً ، فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدينا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة وتسم الهواء طيباً وتراب الأرض عبقاً ، .

٥ - وما مضى كله كان الحكم فيه على ظاهر احد بن عبد الوهاب من خلال ما ترى العين . ويتصور النظر . فحدد هذه الأبعاد طولاً وعرضاً ودقة وضخامة . ونوراً وارتفاعاً أو انخفاضاً إلى غير ذلك مما تدركه العين ويحده الحس . ولكنه هنا يترك المحسوس إلى المعنوي أو ما يترك بالمعنى إلا ما يتحدى الفكر ويحتاج إلى العلم التجريبي والنظر العقلي لا الحسي . فإذا كانت السمكة من غير رثة حقيقة واستماضت عن ذلك بخياشيمها قبل اللعب من غير طحال ، والبعير لا مرارة له ؟ أمر يحتاج إلى التشریح !!

ولم وصف الضب بالعقوف . ولم توصف به الهرة مع أن كليهما يأكلان أولادهما
سؤال يحتاج إلى علة يستريح لها العقل !!

وهل تمام الأرنب مفتوحة العين حقيقة أم هل لها عين داخلية وأخرى خارجية؟! وهل يأكل الذئب صاحبه إذا رأى بهدماً؟ أو أن ذلك يحتاج إلى الملاحظة والاستقراء .. وكيف تجمع كلمة المؤرخين ورجال الدين على أن عمر نوح أطول الأعمار وهناك الدجال الذي حذرت منه جميع الأديان من قبل نوح ومن بعد نوح؟ إن بالرسالة طرافة نادرة . وعلماً متنوعاً وفكراً غزيراً . فيها الأدب والفلسفة ، وفيها النظر والتجربة والاستقراء ، وفيها من قبل ومن بعد شخصية الجاحظ الفكية المميزة بطابعها الذي لا يشاركه فيه عالم أو باحث أو أديب .

ثانياً :

١ - في هذه الرسالة معارض لثقافات الجاحظ المتنوعة في الجدل والفلسفة وعلم الكلام ، والفقه والشريعة والسير والتاريخ ، والكيمياء والطبعية والتشريح والشعر والنثر ، والبلاغة والبيان ، وفيها آثار من الثقافات العربية والفارسية والهندية ، إنها تكشف عن رحابة أفق هذا الكاتب الكبير وتجعله إماماً في الفلسفة والمنطق ، والأدب واللغة ، والعلم والمعرفة وتوهله لأن يكون نادرة عصره ، وغراً للعرب .

٢ - ومن براعة الجاحظ في سخريته وتمككه ، أو من سخريته وتمككه البارع أنه يقدم أحمد بن عبد الوهاب في صدر رسالته طويلاً وعرضاً وتربيعاً وتدويراً ، وبعبارة أخرى يشوّهه حساً ، فيصل في ذلك إلى أرقى ما وصل إليه أهل الفن من راسمى الكاريكاتير ، الذين يعتمدون إلى خاصة في الإنسان أو الحيوان فيبالغون فيها أي مبالغة ليخلعوا على فنهم ظرافة تجذب النفس وتثير الفكر وتروح عن القلوب وتؤثر فيها بما لها من دلالات رائجة ، ومهما حاول الفن الحديث بالتخطيط والتلوين فلن يستطيع أن يعرض هذا العمق الكبير في الشكل والجوهر على النحو الذي وصل إليه الجاحظ .

إن الجاحظ يعرض الظاهر أولاً لتتضح الصورة أمامنا ، ثم ينتقل من الظاهر إلى الباطن ليكون الانتقال إليه رقيقاً على النفس والعقل معاً . أنه يشوّه جسم أحمد بن عبد الوهاب ، وكأنه به لم يفتح بذلك فأخذ يشوّه عقله وفكره أيضاً . وبذلك نعد الجاحظ إماماً في الهجاء ، ولكن ليس على هذا النحو المنحط المبتذل الذي سمعناه من ثلوث العصر الأموي ، الأخطل وجريرو والفرزدق ، ولكن على نحو عباسي حضاري كأنه يناقش فيه مسألة علمية دقيقة ويحشد لها من معارفه بلن ويحشد لها الجمهور الذي يستمع إليها ، فينثر على مسامعهم علماً وفلسفة وأدباً ، ومبالغة في المديح الساخر ، ليقودنا إلى مشاركته مشاعره الساخرة بأحمد بن عبد الوهاب !!

٣ - والرسالة إذن ذات موضوع يهتم به الجاحظ قبل أن تكون ذات أسلوب فإذا تأملناها من الناحية الأسلوبية ألقيناها ذات أسلوب يمتاز به الجاحظ

ونجده من هذه الوجهة إماماً من أئمة الأساليب ، وأنه قد استحق بجدارة أن يكون صاحب مدرسة فنية معروفة . . . بمدرسة الجاحظ ، ومن أهم سمات هذه المدرسة كما ترمى في هذه الرسالة :

— الأسلوب السهل الممتنع الذي تتعاقب فيه الألفاظ والمعاني بحيث لا تحس تكلفاً لفظياً ، فكل لفظ يقع موقه الملائم دون تكلف أو اضطراب ، وكل معنى مستقر في موضعه على نحو من التسلسل وحسن العرض .

— يعتمد الجاحظ في أسلوبه على المفارقات والتقابلات التي أخذت ألواناً متعددة فبين الفقرة والفقرة تقابل . فهذه تصف الجسم وتلك تصف العقل . وهذه أسئلة تقدم وتلك حقائق تقرر ، وهذا أسلوب خيرى وذلك أسلوب إنشائي ، وهكذا مما يشيع بين فقرة وفترة .

وهناك تقابل آخر بين الجملة والجملة ، تقابل تحقق لها التماسك من جهة ، ووضوح المعنى من جهة أخرى .

وفي الرسالة تلوين عقلي وآخر صوتي ، وغير ذلك من أساليب المفارقات التي استفلمها الجاحظ إلى أبعاد مدى .

— التكرار الموسيقي : أو موسيقا التوازن بين الجمل ، فالجاحظ يقطع عبارته ويراجع بين جملها ، وألفاظها بحيث تظهر لها موسيقى رتيبة تستريح لها الأذن وتطمئن لها النفس لتجد المعاني طريقها إلى العقول .

ولا يظهر ذلك في فقرة دون فقرة بل يكاد أن يكون أمراً شامئاً في هذه الرسالة إننا لا نقصد موسيقا الحرف أو الحروف على الصورة التي تحقق السجع أو الجناس بل نقصد السكنة كلها وإن اختلفت حروفها أو أغلبها . فإذا انضم إلى هذه الظاهرة جناس أو سجع زاد العبارة تنظيماً موسيقياً رائعاً متلوناً .

ومن الطريف أنك لا تجد ذلك في فقرة دون فقرة من هذه الرسالة بل ذلك سمة عامة فيها جميعاً .

فإذا تأملت وجدته يبني الجمل على أساس الكلمتين ، أو الثلاث ، أو الأربع ،

فالكلمتان مثل : « ضئيلاً نضواً ومعوجاً ، شختاً ، — والثلاث مثل : « تكسو من عراه ، وتسكن من أشجبه » .

والأربع مثل : الذى يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال .

والكلمات الثلاث بعدها مزوجات مثل : وأنت دائم اليمين : ظاهر السعادة ، ثابت السكال ، شائع النفع . ومثل : وأنت ظاهر التمام : دائم السكال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر .

وغير ذلك من مظاهر التمكن الكبير من التلاعب بموسيقا الكلمة . ومن هذا كله تحسن أنه ينساب في تعبيره انسياب الماء الهادئ في جداوله ..

إنه الجاحظ الذى قال عنه ابن العميد « إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والمعارضة » ، وقال عن كتبه « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . (٥)

من حكم الكلام

لابن عبد القدوس

تمهيد . صالح بن عبد القدوس أحد شعراء العصر العباسي ، وكان من حكماء الشعراء في عصره ، ومن النوايغ في البلاغة والوعظ والأدب ، وقد حقد عليه أعداؤه وأتموه لدى المهدي الخليفة العباسي بالزندقة والاحقاد فضربه بالسيف فقطعه نصفين وعلقه في بغداد . وصالح بن عبد القدوس قصيدة مشهورة في عالم الأدب تعرف ، بالقصيدة الزينية ، وقد اخترنا منها هذه الأبيات التي تتناول بعض الحكم المفيدة والنصائح الغالية التي تعين الإنسان وتساعد على أمور حياته وفهم حقيقة الناس ونفوسهم وطبائعهم وما يزين الإنسان وما يشينه .

النص

وَابْدَأْ عَدُوَّكَ بِالنَّحِيَةِ وَتَتَكُنْ مِنْهُ زَمَانُكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
وَاحْذَرُهُ إِنْ لَا قِيَمَةَ مُتَبَسِّمًا قَالَتِ يَبْدُو نَابَهُ إِذْ يَمْضِبُ
وَإِذَا الصَّادِقُ لَمِيضُهُ مُتَمَلِّقًا فَهِيَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُتَجَنَّبُ
لَا خَيْرَ فِي وُدِّ الْمُرِيءِ مُتَمَلِّقٍ حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرْفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرْوَعُ مِنْكَ كَمَا يَرْوَعُ الشَّعْلَبُ
وَصِلِ الْكِرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِجَهْوَةٍ فَالْصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّجَاوُزُ أَمْوَبُ
وَاخْبِرْ قَرِيْبَكَ رَأْسَ طَيْفِهِ تَفَاخُرًا إِنَّ الْقَرِيْبَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُنْسَبُ
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْقَارِبِ كُلِّهِمْ بَدَلًا وَاسْمَعْ لَهُمْ إِنْ أَدْبَوْا

(١) متملق : يقول بلسانه ما ليس في قلبه .

وَدَعِ الْكُتُوبَ فَلَا يَكُنْ كَمَا جَاءَا	إِنَّ الْكُتُوبَ بَيْنَ يَدَيْ يَتَّبِعِ
وَرَبِّ الْكَلَامِ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ	تُرْتَلِّدُ فِي كُلِّ نَادٍ تَتَلَبَّ
وَأَخْطِيبُ الْكُفْرَ وَالنُّزُومِ مِنَ الْغَيْبِ	فَالنُّزُومُ يَتَلَمَّ بِاللَّسَانِ وَتَتَلَبَّ
وَالرُّسُلَ فَكُنْهُمْ وَلَا تَتَلَبَّ بِهِ	إِنَّ الرُّسُلَ كَثُرَتْ كَثْرًا لَا يَتَلَبَّ
وَكَلَامَ الرُّسُلِ فَإِنَّ الرُّسُلَ لَا يَتَلَبَّ	فَسُرَّةُ الْبَيْتِ تَرِيدُ وَتَكَلِّبُ
لَا تَتَعَرِّضَنَّ لِلرُّسُلِ بَيْنَ يَدَيْهِ	فِي الرُّزُقِ بَلْ تَتَنَبَّ الرُّسُلَ وَتَتَلَبَّ
وَارْحُ الْأَمَّةَ وَالْجَلِيلَةَ فَابْتَلِبْ	وَأَعْلَى وَلَا تَطْلُبْ بَطْنَكَ مَكْتَبُ
وَإِذَا أَمَّاكَ تَكَلِّبْ فَاعْبُدْهَا	مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُتَمَلِّئًا لَابْتِكُ
وَإِذَا رَأَيْتَ بَيْنَ الرُّسُلِ يَرِيدُ	أَوْ تَأْتِكَ الْأَمْرَ الْأَسْفَلَ الْأَمْبُ
فَتَضَرَّعْ لِلرُّسُلِ إِذَا أَدْنَى لِي	يَلْتَمِسُ مِنْ حَيْلِ الرُّسُلِ وَأَقْرَبُ
وَاحْتَرِ مَطْلَعَةَ الْغَيْمِ فَإِنَّهُ	يُنْدِي كَمَا يَنْدِي السَّمْعُ الْأَخْرَبُ
وَاحْتَرِ مِنَ الْعُلُومِ نَهْجًا مَالِيًا	وَأَعْلَى بَلْكَ تَطْلُبُ لَا يَتَلَبَّ
وَلَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ تَقِيلَ سَيْبِي	وَالنَّحْمُ أَهْلِي مَا يَبْتَاعُ وَرُوحِي

الطليق

في هذه الأبيات يقدم الشاعر بعض النماذج والحكم اللطيفة التي تسلط الإنسان على فهم الناس والتعامل معهم فغير يتصنعا بأن تبدأ عدونا بالتحية حتى ولو كنا نخشى هذا العدو ونخافه والتحية تزيل اللجوة وتقرب النفوس ، وهو يحذرتنا من أن تأخذ الأمور بظاهر ما قربنا تخشى الابتلاء على الشفاعة ما تخفيه النفس من شرورها وهو يحذرتنا أيضًا من الإنسان اللسان الذي يقول بلسانه ما ليس في قلبه فتهده من شيبته

النفوس الضعيفة، ويشير الشاعر إلى حسن اختيار الصديق أن يتعد عن صحبة من يشينون قدره. ثم ينتقل بعد ذلك الشاعر إلى بيان ما ينبغي أن يراعيه الإنسان في حديثه مع الآخرين فيجب أن يكون كلامه موزوناً يقدر لكل كلمة معناها وألا يكثر الإنسان من الكلام بدون داع وإذا أوتن على سر فعليه أن يحافظ عليه ولا يقوله لأحد حتى لا ينتشر ويذيع أمره ثم يوصي الشاعر ببعض الخصال الكريمة مثل البعد عن الحرص الشديد ورعاية الأمة والعدل وإحقاق الحق والصبر على الشدائد والتضرع إلى الله عز وجل في الشدة والضراء، وأخيراً يحذر الشاعر من مصاحبة اللئيم ومن الظلم فدعاء المظلوم مستجاب عند الله.

وهذه الأبيات كما يتضح منها عرضت هذه النصائح والحكم في أسلوب سهل مستساغ مقبول محبب إلى النفس في أسلوب عذب اختيرت ألفاظه بعناية وبعد فيها الشاعر عن الغريب من الألفاظ أو ما يستغلق فهمه. وهو في النهاية يختم أشعاره بعبارة جميلة مفادها أن النصح هو أعلى ما يمكن أن يقدمه الإنسان.

مقدمة مدح

لمسلم بن الوليد

تمهيد :

شاعر عباسي ، ولد بالكوفة حوالى سنة ١٤٠ هجرية ، وفي شعره ما يدل على وقاره واتزانه في كهولته ، وعلى لهوه وحبه في ضباه . وقد تفتحت مواهبه منذ نشأته فأغراه ذلك بالانتقال من الكوفة إلى البصرة حيث تزوج بضاعة الشعر ويحظى الشعراء بجوائز الخلفاء والوزراء والأمراء وقادة الجند ، ويقال إنه كان يربح في العام ألف ألف درهم .

وقد مدح الرشيد فلبع اسمه ، وتوثقت الصلات بينه وبين البرامكة . . .
ويلقب مسلم بن الوليد « بصريع الغواني » ، ويعلمون ذلك بأنه مدح الرشيد بقصيدة رائعة مطلعها :

هل العيش إلا أن أروح مع الصبا وأغدو صريع الراح والأعين النجمل

فقال له : « أنت صريع الغواني » ، وفي أخباره أن الرشيد وصله مرة بمائتي ألف درهم . وأشاد بانتصاراته على الروم . . . وارتفع مكانه حتى تولى جرجان . وتوفي سنة ٢٠٨ هجرية .

وكان يجهد نفسه في صنعة الشعر ، و . . . ويزود من قديمه وحديثه وعرف ألوان البديع وزخرف القول من جناس ومشاكل . وتورية وسجع . . . وجعل ذلك أساساً لشعره .

ولم يمنح موضوعاً عناية قدر عناية بالمدح

ولإليك نموذجاً يلقي الضوء على مدى هذه العناية :

النص

أُدِيرِي عَلَى الرَّاحِ سَاقِيَةَ الخَمْرِ^(١)
وَلَا تَسْأَلِنِي وَأَسْأَلِي الكَاسَ عَن أَمْرِي
كَأَنَّكَ بِي قَدْ أَظْهَرْتَ مُضْمَرَ الحَشَا^(٢)
لَكَ الكَاسُ حَتَّى أَطْلَعْتِكَ عَلَى سِرِّي
وَقَدْ كُنْتُ أَقْلِي^(٣) الرَّاحَ أَنْ يَسْتَفْزِنِي
فَتَنْطِقَ كَأْسٌ عَن لِسَانِي وَلَا أُذْرِي
وَلَكِنِّي أَعْطَيْتُ مِقْوَدِي الصَّبَا
فَقَادَ بَنَاتِ اللُّهُمِ مَخْلُوعَةَ العُذْرِ^(٤)
إِذَا مَشِئْتُ غَادَانِي^(٥) صَبُوحٌ مِّنَ الهَوَى
وَإِنْ شِئْتُ مَا سَانِي عُبُوقٌ مِّنَ الخَمْرِ
ذَهَبْتُ وَلَمْ أُحْدِدِ^(٦) بِعَيْنِي نَظْرَةَ
وَأَيَقَنْتُ أَنَّ العَيْنَ هَاتِكَةَ سِتْرِي

-
- (١) الراح : الخمر .
(٢) الحشا : يقصد القلب . رضم الحشا : ما خفي في القلب .
(٣) أقلي : أكره ، يستفزني : يستخفني لذهاب وعيه
(٤) العذر : جمع عذار : المياه ، وخنق عذراء : سار على هواه .
(٥) غاداني : بالآتي ، الصبوح : العذراء ، العبوق : الشرب مساء .
(٦) أحدد : انظر بجدة ، هاتكة ستر : يريد كاشفة أمرى .

جَمَلْنَا عِلَامَاتِ الْمَوَدَّةِ يَدِينَا
مَصَائِدَ لِحَظٍ^(٧) ، هُنَّ أَخْفَى مِنْ السُّحْرِ
فَأَعْرِفُ مِنْهَا الْوَصَلَ فِي لَيْلٍ طَرْفَهَا
وَأَعْرِفُ مِنْهَا الْمَجْرَى فِي النَّظَرِ الشُّرَى^(٨)
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ خَشْيَةٌ مِنْ صُدُودِهَا^(٩)
أَبَيْتُ عَلَى ذَنْبٍ ، وَأَغْدُو عَلَى عُذْرٍ
وَمُلْتَطِمِ الْأَمْوَاجِ يَرْمِي عِبَابَهُ^(١٠)
بِجَرَجَرَةٍ الْأَذَى لِلْعَبْرِ فَالْعَبْرِ
مُطَمَّعَةٍ^(١١) حَيْثَانَهُ مَا يُفْبِهَا
مَا كَيْلُ زَادٍ مِنْ غَرِيقٍ وَمِنْ كَسْرِ
إِذَا اعْتَنَقَتْ^(١٢) فِيهِ الْجُنُوبُ تَكْفَاتُ
جَوَارِيهِ أَوْ قَامَتْ بِهِ الرِّيحُ لَا تَجْرِي

(٧) مصايد اللحظ : المراد : غمزات العين .

(٨) النظر الشُّرَى : يكون بجانب العين .

(٩) خشية : خوف ، أبيت على ذنب : تتيمنى بذنب لم أفعله ، أغدو على

عذر : أسارع الى الاعتذار إليها .

(١٠) عبابه : موجه ، جرجره الأذى : صوت الموج ، العبر : حافة النهر .

(١١) مطمعة : شبعة ، ما يفبها : ما ينقطع عنها ، كسر : المراد كسر

سفينة .

(١٢) اعتنقت : اضطربت ، الجنوب : ريح تهب من جهة الجنوب ، تكفات :

انقلبت ، الجوارى : السفن .

كَأَنَّ مَدَبَّ الرِّيحِ فِي جَنَابَتِهَا
مَدَبُ الصَّبَا^(١٣) بَيْنَ الوَعَاثِ مِنَ العُفْرِ
تَجَافَى^(١٤) بِهَا الذُّوْقِي حَتَّى كَأَنَّمَا
يَسِيرُ مِنَ الإِشْفَاقِ فِي جَبَلٍ وَعُرٍ
تَخْلُجُ^(١٥) عَن وَجْهِ الحَبَابِ كَمَا انْتَنَّتْ
مُخَبَّأَةً مِنْ كِنِيرِ سِترٍ إِلَى سِترٍ
فَحَامَتِ^(١٦) قَلِيلًا ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّهَا
عُقَابٌ تَدَلَّتْ مِنْ هَوَاءٍ عَلَيَّ وَكَر
أَنَافِ^(١٧) بِهَادِيهَا وَمَدَّ زِمَامَهَا
شَدِيدُ عِلاجِ الكَفِّ مُتَمَلِّئُ الظُّهْرِ
إِذَا مَا عَصَتِ أَرْخَى الجُرَيْرِ^(١٨) لِرَأْسِهَا
فَمَلَّكَهَا عِصْيَانَهَا وَهِيَ لَا تَدْرِي

(١٣) الصبا : ريح تهب من جهة الشرق ، الوعاث : الرمال اللينة ، العفر :
جمع عفر وهو الكئيب الأحمر .

(١٤) تجافى : تنحى (يقصد تنحى عن الحجارة التى تحت الماء) الاشفاق :
الحوف .

(١٥) تخرج : تنحى . الحباب : الموج ، مخبأة : يقصد جارية .

(١٦) حامت : استدارت ، العقاب : طائر جارح ، الوكر : عشن الطائر

(١٧) أناف بياديبا : اشرف بعنق السفينة ، العتملى : العامل .

(١٨) الجرير : الحبل ، عصيانها : المراد : تماديبها فى الجرى .

كَأَنَّ الْعَبَّاءَ تُحْكِي بِهَا حِينَ وَاجَهَتْ

نَسِيمَ الصَّبَا مَشَى الْعَرُوسِ إِلَى الْخُدْرِ (١٩)

يَمْنًا بِهَا لَيْلَ التَّمَامِ (٢٠) لِأَرْبَعِ

فَجَاءَتْ لِسِتِّ قَدْ بَقَيْنَ مِنَ الشَّهْرِ

وَحَتَّى عَمَلَاهَا الْمَوْجُ فِي جَنَابِهَا

بِأَرْضِيَّةٍ مِنْ نَسِجِ طُحْلِبِهِ (٢١) خُضْرِ

رَمَتْ بِالْكَرَى (٢٢) أَهْوَالِهَا عُنُوبِيهِمْ

فَبَاتَتْ أَهْوِيلُ الشَّرَى بِهَمِّ تَشْرَى

تَوْمٍ (٢٣) مَحَلِّ الرَّاعِبِينَ وَحَيْثُ لَا

تُدَادُ إِذَا حَلَّتْ بِهِ أَرْحَلُ السَّفْرِ

رَكِبْنَا إِلَيْهِ الْبَعْرَ فِي مُؤَخَّرَاتِهِ (٢٤)

فَأَوْقَتْ بِنَا مِنْ بَعْدِ بَحْرِ إِلَى بَحْرِ

(١٩) الخدر : ما تستتر به الفتاة من بيت ونحوه .

(٢٠) ليل التمام : الليلة الرابعة عشرة . (استغرقت الرحلة عشرة

أيام) .

(٢١) الطحلب : طبقة نباتية خضراء تعلو الماء .

(٢٢) الكرى : النوم ، أهويل : جمع أهوال ، والأهوال : جمع هول .

(٢٣) توم : تقصد ، تداد : تمنع ، السفر : المسافرين .

(٢٤) مؤخراته : أواخر ركوبه .

لعلنا نلاحظ طول المقدمة ، وأنها دارت على ثلاثة محاور :

الأول : كان حديثاً عن الخمر ، ورأى فيها كسفاً لسره ، ولكنه على الرغم من ذلك يطلب من الساقية أن تسقيه ، ثم لتعرف عنه بعد ذلك ما يضمن من سر ، مهما حاول أن يخفي .

الثاني : وانتقل من المحور السابق في سهولة ويسر إلى الغزل فيرى في الحب ملاك أمره ، فإن كان صبوحة في الحب ، فإن غبوقه في الخمر ، وكلاهما حبيب إلى نفسه أثير عند هواه . . .

ثم يتلطف مع محبوبته ؛ فنظر إليها في هدوء ، ولحظها في خفاء ، إنه يخشى صدودها ، ويتهالك في مودتها ، فيحس أنه مذنب وهو بري ، ويعتذر في حين أنه لم يذنب ، وينام على ذكراها ، ويستيقظ على هواها ، ومن هنا بيت على ذنب ، ويغدو على عذر . .

الثالث : وإن كان الشاعر قد جوسل الأبيات التسعة الأولى بين الخمر والغزل ، فإن بقية النص قد استقل بوصف رحلة بحرية شاقة ، ومغامرة خطيرة في سبيل الوصول إلى ممدوحه . إنه يركب سفينة تشق عباب نهر الفرات ، والأمواج فيه متلاطمة ، والريح هوجاء عاصفة ، فالخطر يهدده من كل جانب ، ومصير مروع ينتظره في كل حين ، مصير يشاهده بين أفواه الحيتان التي تتلقف السفين وراكبيه !!

وليت السفينة تمر سريعة بهذه الأخطار أو ليت الأخطار تمر بها على عجل ، ولكن الأمر على التقيض من ذلك ؛ إن ربانها يشق بها وعسر الجبال هذا إذا أبطأت ، وإن هي أسرعت كانت العقاب الجارح ، عصية القيادة ، إن جذب زمامها فلن تنقاد ، وإن أرخى الزمام استعصت عليه ، وتمردت ، والخوف يملك ركبها في الحالتين .

ولم تكن هذه رحلة الساعة واليوم ، ولكنها رحلة الأيام الممتدة إلى عشرة أيام ، فيها النهار وفيها الليل . وفيهما الفرع الكبير الذي يذهب النوم . ويستقدم الأحوال . . ولا يخفى علينا مافي هذا الوصف من مبالغات هادفة ، والدليل على ما فيها من تكلف الصور غير الملائمة في الأبيات ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، فإن الشبهه العاطفي غير متوافر على الرغم من وجود الشبهه المادى .

وفي نهاية المطاف يجد الملجأ الأمين فيأوى إليه، فيجد الأمل المذشود فيلتي بنفسه في رحابه ويطمئن إلى جوده وكرمه الغامر .

— وجدير بنا أن نتساءل . . لماذا يسرف هؤلاء الشعراء من أمثال : مسلم بن الوليد وأبي تمام في هذه المقدمات ؟

لأنهم بذلك يوفون السامعين حقوقهم ، فليست القصيدة عملاً فنياً بين المادح والمدوح فقط . ولكن هناك رجال الحاشية الذين لا تهمهم هذه الصفات التي تخضع على المدوح بحق أو بغير حق ، ولهم أثر في تحديد منزلة الشاعر عند الأمير ، والعناصر الثلاثة في مستوى السامعين : الخمر وأثرها ، والحبيب وكيف الوصول إليه ، ورحلة بحرية أقرب إلى المغامرة منها إلى سفر شاق يطيقه المسافرون .

— مع ذلك نجد الصلات وثيقة بين المقدمة والغرض الأصلي من القصيدة والأبيات الخمرية تشير إلى سر تكشفه الخمر ، وينطق به لسانه ولا يدري ، فما هذا السر؟ إنه الحاجة والأمل اللذان أوجاه إلى المدوح ليطلب منه العطاء .

وأبيات الغزل تحمل في طياتها الخشوع ، والرقه ، والمودة ، والحشية ، وفيها النظرات الفاحصة ، الهادئة في آن واحد . فلم ذلك ؟

لأشياء غير التودد إلى قلب المدوح ، والكشف عن أمل المادح الذي يريد أن يصل إليه من غير إلحاح في الطلب أو لإزعاج الآخرين .

وأبيات البحر والسفين والأخطار وما فيها من إسراف وتهويل ، الغرض منها واضح . . إنه يقول للبدوح : ينبغي أن يكون الثواب على قدر المشقة .

* * *

— وفي هذه المقدمة بعض التطور الذي أصاب الشعر في العصر العباسي ؛ فإذا كان شاعر الجاهلية وشاعر الإسلام وبني أمية يحددنا في مقدماته عن رحلة الصحراء على النوق والجمال ، فإن مسلم بن الوليد ، قد طور ذلك إلى الحديث عن رحلة بحرية وسيلتها سفينة المساء لا مركبات الصحراء .

وأما هذه المقدمات كانت التمهيد الذي لفت عديد آ من شعراء هذا العصر والعصور التالية إلى تناول الطبيعة وتأملها وعرضها بين يدي قصائدهم .

* * *

— إن الحياة في العصر العباسي قد ازدادت تطوراً وانتقالاً إلى طور معقد كثير التكاليف مبسوط الحاجات واللذات ، فازدادت قيمة المال . وأصبح هم جمهرة الناس السعي لإنيه بشقى الأساليب ، ولم يعد في الدولة مكان لغير الأغنياء ، ومن الأمثال الشائعة في عاصمة الخلافة بغداد ، المال المال وما سواه محال ، وأصبح حال الدنيا كما يقول شاعر بني العباس :

تصلح للموسر لا لأمري^٥ بيت في فقر وإفلاس
فعذرة إلى الشعراء أن اتخذوا من فهم وسيلة إلى الوصول إلى الأموال .

* * *

— بقى أن ننظر إلى القصيدة نظرة فنية ، وسوف نلاحظ فيها :

أن الشاعر يختار الجيد من الألفاظ في جزالة رائعة وتناسق كامل يصور به نفسه ، وعقله ، وخياله ، تناسق يفيد فيه بما قال التدماء في وصف الصحراء والنوق والشيد متافئاً إلى إبداع معاصريه في هذه المجالات وخروجهم بها إلى وصف الخمر أو السفن في طريقهم إلى من يمدحون .

لقد كان مسلم بن الوليد ينظم في الحب والخمر، ولكنه كان يبتغى على نفسه ، ويحفظ بالكثير من كرامته ؛ ففي غزله لا يمجح ولا يفحش ، بل يقترّب من أصحاب الهوى العذرى مع حرص على عرض المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة ، ومع الخيال والمعاني لا ينسى الموسيقى الضخمة الصاخبة وما ترسل من رنين قوى مزاجاً بين عناصر الشعر القديمة والجديدة ، مع حرص على ألوان من البديع تمتع العقول والأفئدة .

وبهذه الألوان البديعة التي وشى بها هذه المقدمة وبأمثالها التي يشيع فيها الخيال ، مع المقابلة والطباق ، يشد من أزرها اللفظ الجزل بهذه الألوان استحق أبو مسلم بن الوليد أن يكون أستاذاً لأبي تمام رافع لواء المحسنات في الأدب العربي في العصر العباسي ، ورائد العديد من الشعراء فيما جاء بعده من عصور (٥) .

(٥) دكتور سعد شلبي

في مدح المتوكل

[للبحرئ]

تمهيد: البحرئ هو أبوعبادة بن الوليد بن عبيد الطائي. ولد سنة ٢٠٦ هـ ومات سنة ٢١٤ هـ ويمتاز شعره برفقة الأسلوب. من الخيال وإجادة المدح والوصف والعتاب. الذم: ١١٠ - ١١١

لِي حَبِيبٍ قَدْ لَجَّ فِي الْهَجْرِ جِدًّا وَأَعَادَ الصَّدُودَ مِنْهُ وَأَبْدَا
ذُو فُنُونٍ يُرِيكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ خُلُقًا مِنْ جَفَائِهِ مُسْتَجِدًّا
يَتَأَبَّى مِنْمَاءٍ وَيُنِيمُ إِسْمَاعًا فَا، وَيَذُوقُ وَصْلًا، وَيَبْعُدُ صَدًّا
أَعْتَدِي رَاضِيًا وَقَدْ بَتَّ غَضْبًا ذُو أَمْسِي مَوْلَى^(١)، وَأُضِيحَ عَبْدًا
رَبِّ نَفْسِي، أَفْدَى عَلَيَّ كُلَّ حَالٍ قَائِلًا^(٢) آهَ رَيْسِ الْبِشْرِ عِنْدِي
مَرًّا بِي خَالِمًا فَاطْمَحَ فِي الْوَسْءِ لِي وَعَرَضْتُ بِالسَّلَامِ قَرْدًا
وَأَنَّى خَدَّهُ إِلَيَّ عَلَى خَوْءٍ فِي فَقَبَلْتُ جُلُنَارًا^(٣) وَوَرْدًا
سَيِّدِي أَنْتَ إِمَّا تَعَرَّضْتُ ظُلْمًا فَأَجَازِي بِهِ فَلَا خَنْتُ عَهْدًا
رَقِّي لِي مِنْ مَدَامِعِ لَيْسَ تَرَفًا^(٤) وَارِثِ لِي مِنْ جَوَانِحِ لَيْسَ تَهْدًا

(١) المولى هنا بمعنى السيد .

(٢) الشادن : ولد الطيبة ، ويقصد محبوبه ، أعدى : بصيب وهو يريد أن عدوى الحسن تنتقل الى من يمهه .

(٣) الجلنار : زهر الرمان .

(٤) ترقا : تجف وتقطع .

أُثْرَانِي مُسْتَبِدِلًا بِكَ مَا عَشْتُ بَدِيلًا وَوَأَجِدَا مِنْكَ بُدَاً
حَاشَى لِيهِ أَنْتَ أَفْتَرُ أَلْحَا ظَا وَأَخْلَى شَكْلًا وَأُحْسِنُ قَدَاً
خَلَقَ اللَّهُ « جَعْفَرًا » قِيمَ الدُّنْيَا سَدَادًا وَقِيمَ^(٥) الدِّينِ رُشْدًا
أَظْهَرَ الْعَدْلَ فَاسْتَنَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَعَمَّ الْبِلَادَ : غَوْرًا^(٦) وَنَجْدًا
وَحَسَى الْقَطْرَ ، بَلْ أَبْرُ^(٧) عَلَى الْقَطْرِ بِكَفٍّ عَلَى الْبَرِيَّةِ تَنْدَى
هُوَ بَحْرُ السَّمَاكِ وَالْجُودِ فَازْدَدَ مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدُ مِنَ الْفَقْرِ بُعْدًا
يَا ثَمَالَ^(٨) الدُّنْيَا عَطَاءً وَبَدَلًا وَجَمَالَ الدُّنْيَا سِنَاءً وَنَجْدًا
بِكَ نَسْتَعْتِبُ^(٩) اللَّيَالِي وَنَسْتَعْتِبُ دِي عَلَى دَهْرِنَا الْمُسِيءِ فَنَعْمَدَى
كَلِمًا قُلْتُ أَطْلُقُ الشُّكْرَ رِقِي رَجَعْتَنِي لَهُ أَيَادِيهِ عَبْدًا
فَأَبْقَ عُمَرَ الزَّمَانَ حَتَّى نُؤَدَى شُكْرَ إِحْسَانِكَ الَّذِي لَا يُؤَدَى

التعليق

« البحرى موسيقار الشعر العربى » عبارة لصيقة بقصائد البحرى « أبو عبادة الوليد بن عبادة البحرى » [٣٠٦ هـ] وهذه القصيدة التى بين يديك تجسد فيها النغم الشعرى فى كل ثنية فيها . قد تفتقد فلسفة للشاعر فى قصيدته ؛ وقد لا نجد — وأنت

(٥) القيم : المستقيم .

(٦) الغور : ما انحدر إلى الأرض ، النجد : ما اشرف من الأرض .

(٧) أبر : زاد ، القطر : المطر .

(٨) الثمال : الملجأ .

(٩) نستعتب : نطلب العتبي أى الرضا ، نستعدى : نستعين .

على صواب — عمق المعنى وروعة النكرة ، ولكنك ستجد بناء موسيقياً يتموج في غزله التقليدي والذي تجد مراماته الموسيقية والنغمية في تكرار حروف بعينها

فمثلاً : حرف الجيم تجده في « لـج » ، « الهجر » ، « جدا » ، وحرف الدال تجده في « قد » ، « أجدا » ، « أعاد » ، « الصدود » ، « أبدا » ، ففي بيت واحد تكررت الدال ست مرات .

ثم تطالعك المدات التي تعطي تناغماً في أحبال موسيقية تمتد إلى « حبيب » ، « أعاد » ، « الصدود » ، « أبدا » ، « جدا » .

وتجد هذا الموسيقى الذي يجيد استخراج روائع النغم من مكانه حتى يلجأ إلى نظام المقابلات وما يضيفه من إيقاعات موسيقية ، تجده مثلاً في يتأبي منعاً ، وينعم إسعافاً ، وتجده مثلاً في يدنو وصل ، ويبعد صدأ ، وتجده مثلاً في أغتدى راضياً . — بت غضبان ، وتجده في أمسى ، مولى — أصبح عبداً .

كما تجد قدرته على إقامة سلم نغمي هابط صاعد في توقعات الحركة والسكون التي يواهم بعضها بعضاً في قوله .

رقاً لي من مدامع ليس ترقا وارث لي من جوامح ليس تهدا
حاول أن تقرأ البيت بصوت مسموع لتمحظى بتلك التوقعات التي حدثناك عنها .

نحن معك في حديثه الغزلي بأنه كما يقول النقاد العرب في مثله « ليس وراءه كبير معنى » ، فالجيب يهجر ثم يصل والشاعر حائر في الحالين . ومع ذلك فهو يعطيك بديلاً عما افتقدته ، هو هذه الدقات الموسيقية كما في هذا الاستفهام العائب ، تجد الحروف « التاء » ، « الباء » ، « النون » تتوالى في نظام موسيقى يتناغم مع مدات الكلمات في قوله :

أتراني مستبدل بك ما عشت ست بديلاً وواجداً منك بدا

ومثله في البيت الذي يليه حيث يسيطر عليه نظام التقسيمات الداخلية مع التركيز على حروف بعينها « الحاء » ، « اللام » ، :

حاش لله أنت أفتر الحساس ظا وأحلى شكلا وأحسن قددا

أما المدح فإتنا معك في أن معانيه مستهلكة فالنور كل ، جعفر بن المعتصم بن الرشيد ،
عاشر خلفاء بني العباس ، ٢٠٦ - ٢٠٧ ، بحر في الكرم ، وقد أظهر العدل
فاستنارت به الأرض ، وليكن البحري وقد أعوزه المعنى فإنه يلجأ إلى قيثارته عل
نفسها يشيع فينا خدراً وتهوراً ، فتجد التقابل بين ، غوراً - تجداً ، ، قرباً -
بداً ، ، أطلق - رجعتي . .

وتظل القضية معلقة ، هل تستطيع براعة الشاعر الموسيقية أن تقوم بديلاً عن
المضمون وما يجب أن يتواتره من خصوبة فكرية ورؤية شعرية ذات تكثيف خاص ؟
إن قصيدة والبحري ، قصيدة مفتوحة تين عن نفسها لبساطة نفسها والشعر يمتاح
من تهر آخر غير هذا الوضوح السهل الرخيص .

من قصيدة البختری فی ایوان کسری

صنعتُ نفسيَ عمَّا يدنسيَ نفسيَ وترفعتُ عن جِدا كلِّ جِيسٍ^(١)
وتأسكتُ حينَ زَعزَعَتِ الدهرُ التماسًا مِنهُ لتعسىَ ونكسي^(٢)
مبلغ^(٣) من صَبَابَةِ العَيْشِ عِنْدِي طَفَفَتْهَا الأيَامُ تَطْفِيفَ بَحْسِ
وبعيدَ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفهِ^(٤) علل شُرْبِهِ وَوَارِدِ خَمْسِ
وكانَ الزَّمَانُ أَصْبَحَ نَحْمُو لَا هَوَاهُ مَعَ الأَخْسِ الأَخْسِ
واشترأى المِرَاقَ خُطَّةَ غَبْنِ بَعْدَ يَمَعِي الشَّامَ بَيْعَةَ وَكَسِ
ولقد رَأَى ابْنُ نُبُو ابْنِ عَمِّي بَعْدَ إِينِ مِنْ جَانِبِيهِ وَأُنْسِ
وَإِذَا مَا جُنَيْتُ كُنْتُ حَرِيًّا أَنْ أَرَى غَيْرَ مُصْبِحِ حَيْثُ أُمْسِي
حَضَرَتْ رَحْلِي الهُمُومَ فَوَجَّهْ تَ إِلَى أَطْيَبِ المَدَائِنِ عَنِّي^(٥)
أَنَسَلِي عَنِ الهُمُومِ وَأَسِي لِمَجَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ
ذَكَرْتَنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الخُطُوبُ وَتُنْسِي

(١) الجيس : الدنيء ، الجدا : العطاء .

(٢) النكس : عود المريض الى مرضه .

(٣) المبلغ : ما يكفى العيش ، الصبابة : بقية الشيء ، التطفيف :

المنقص .

(٤) رفته : من يشرب متى شاء ، العلل : الشرب الثانى ، وازد خمس :

من يشرب مرة كل أربعة أيام .

(٥) العنس : الناقة .

وَهُوَ خَافِضُونَ^(٦) فِي ظِلِّ عَالٍ
حَلَلٌ^(٧) لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سُمْدِي
وَمَسَاعٍ^(٨) لَوْلَا الْحَابَابَةُ مِنِّي
نَقَلَ الدُّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجِدِّ
فَكَأَنَّ الْجِرْمَانَ^(٩) مِنْ عَدَمِ الْأُنْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي
وَهُوَ يُنْبِئُكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ
فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَاكِيَّةِ
وَالْمَنَابِيَا مَوَائِلَ وَأَنْوِشِرْوَانَ
فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَحَدِ
وَعِرَاكِ الرَّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنْ مُشِيحٍ^(١٢) يَهْوِي بِتَعَامُلِ رُمُوحِ

مُشْرِفٍ يَخْشُرُ الْعِيُونَ وَيَخْشَى
فِي قِفَارٍ مِنَ الْبَسَابِسِ مُنْسٍ
لَمْ تَطِقْهَا مَسَاعَةٌ عَنَسٍ وَعَبَسٍ
عَ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لِبَسِ
وَإِخْلَافِهِ بَنِيَّةَ رِمْسٍ
جَعَلْتِ فِيهِ مَأْتًا بِمَدِّ عُرْسٍ
لَا يُشَابُ الْيَبَانَ فِيهِمْ بِلْبَسِ
ارْتَمَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفُورْسٍ
يُرْجَى الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرْفَسِ^(١٠)
غَرَّ يَحْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وُرْسٍ^(١١)
فِي خُفُوتٍ مِنْهُ وَإِعْمَاضِ جَرْمِسِ
وَمَلِيحٍ مِنَ السَّنَانِ بِتُرْسِ

(٦) خافضون : منعمون .

(٧) حلال : الديار والأماكن ، البسابس : القفار ، مس : الصحارى .

(٨) مساع : مكارم ، عنس : قبيلة من اليمن ، عبس : قبيلة من نجد .

(٩) الجرمان : أحد قصور الإيوان ، رمس : قبر .

(١٠) الدرفس : المعلم .

(١١) الورس : نبات أصفر يصنع به .

(١٢) المشيخ : القبيل اليك والمانع لما وراء ظهره ، عامل الرميح : صدره

المليح : المحاذر خوفا .

تَصِفُ الْمَيْنُ أَنَّهُمْ جَدَّ أَخِي
يَعْتَلِي (١٢) فِيهِمْ أَرْثِيَابِي حَتَّى
وَكَاَنَّ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْ
فَيَظُنُّ مِنَ السَّكَاةِ أَنْ يَبْدُو
مُزِعِجًا بِالْفِرَاقِ عَنِ أَنْسِ رَأْفِ
عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْمَشْ
فَهُوَ يُبْدِي تَجَلُّدًا وَعَلِيهِ
لَمْ يَبْعِبْهُ أَنْ بَزَّ (١٥) مِنْ بَسَطِ الدِّيَابِ
لَيْسَ يُدْرِي أَصْنَعُ لِأَنْسٍ لِحْنُ
عَمَّرَتْ لِلشَّرُورِ ذَهْرًا وَصَارَتْ
فَلَهَا أَنْ أَعْيَنَهَا بِدُمُوعِ
ذَلِكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي
غَيْرَ تُعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدِ كَلْفٍ بِالْأَمْرِ

أَيْ لَهُمْ يَبْدُو لَهُمْ إِشَارَةٌ خُرْسِ
تَتَقَرَّاهُمْ يَدَايِ بِلَيْسِ
مَعَا جَوَابٌ (١٤) فِي جَنْبِ أَرَعْنَ جَلِيسِ
لِعَيْنِي مُصْبِحٌ أَوْ مُمَسِي
عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا بِتَطْلِيْقِ عُرْسِ
تَبْرَى فِيهِ وَهُوَ كَوَكْبٌ نَخَسِ
كَكَلِكٍ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مَرْسِي
جِ وَاسْتَلَّ مِنْ سُتُورِ الدَّمَقْسِ
سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنِّ لِأَنْسِ
لِلتَّعَزِّي رَبَاعَهُمْ وَالتَّأْسِي
مُوقِفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حَبْسِ
بِاقْتِرَابِ مِنْهَا وَلَا الْجِنْسِ جِنْسِي
غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ عُرْسِ
فِي طَرَا مِنْ كَلِّ سَنَخِ وَأَسِ (١٦)

(١٢) يعتلي : يعظم ، تتقراهم : تتبعهم .

(١٤) الجوب : الترس ، الأرعن : الأحمق ، المجلس : الغليظ الأحمق .

(١٥) بز : سلب ، الدمقس : الحرير الأبيض .

(١٦) السنخ : الأصل ، الأس : مبتدأ السماء .

التعليق

في هذه القصيدة يطالبنا البحترى بوقفه طويلة على إيوان كسرى، ويتحدث عنه حديثاً طويلاً، وقد سبق أن رأيت صورة أخرى في المدح عند البحترى في قصيدة سابقة، ولكنه يعرض هنا لموقف آخر تعرضت له نفسه وهو نوع من الشعور بالأسى والحزن وحيث قد دفعه هذا الشعور إلى أن يهجر حياة الناس ليلتمس عزاء في تلك الآثار المتبقية.

ونستطيع أن نقسم القصيدة إلى المحاور الآتية:

المحور الأول: شكوى نفسه من الناس وترفعه عن أن يرضى لها ذلاً، ويشكو البحترى قوة الأيام وظلم ابن عمه أي تبدل الآخرين عموماً وضياح أمانيه وإحساسه بأن الزمن يميل إلى اللثام ولا يدع للشرقاء إلا اليأس والالام، ثم يبين البحترى عن ندمه لرحيله من الشام إلى العراق ويظهر حزنه للخسارة التي أصابته.

المحور الثاني: نجده في رحلته انتماساً لعزاء النفس بين تلك الآثار القديمة وتذكره لمجد الساسانيين ثم وصفه للنصر، فيصفه بأنه عال شاق يتفوق على أطلال العرب التي يطيل الشعراء الحديث عنها ويتفوق بمجد أصحابه.

والجرماز أحد قصور الإيوان أضحي إتهدمه كالقبر القديم وكان به مأتماً بعد أن كان للسعادة والنعمة.

المحور الثالث: يصف أنطاكية ومعركتها الشهيرة بين الروم والفرس ويرسم صورة تكاد تمسها للقتال الدائر حتى يخيل إلينا أن المعركة أمام أعيننا.

المحور الرابع: عودة إلى وصف الإيوان فيجمله وهو في استدارته وهو بجانبه بناء عظيم يشبه ترساً على جنب امرئ أحق، ويعطيه تجسيداً حياً حين يجعله حزناً لفراق إلفه أو تطلق عروسه ومع ذلك فهو يتجدد للدهر ويصبر على الزمن.

المحور الخامس: وفاء ودعمه ود لتلك الأماكن وهذا الوفاء ينفصل عن فكرة التعصب للجنس فالفرس جميل لا ينسب إشارة إلى تأييدهم للعباسيين عند قيام دولتهم.

وموقفه الإنسانى العام بأن طبعه الميل إلى كل كريم شريف مهما يكن
جنسه ونوعه .

فى القصيدة ذلك المدلول الذى لا يخطئ الناظر لشعر البحترى والذى تحدثنا عنه
فى قصيدة أخرى له وهى حرصه على التوازن الموسيقى والإيقاعات الداخلية المتوازنة
فى الأبيات ، وقد تأتى من تكرار بعض الألفاظ أو الحروف المتقاربة مثل تكرار
السين مثلاً أو الفاء مثل « ولا الجنس جنس — عرسوا خير عرس » ، ومثل طففتها
الأيام تطفيف بحس ، وقد تكون جملة الموسيقى معتمدة على تكرار الألفاظ التى
تتقارب فى المعنى أو تكرار العبارات التى تشع بالرفقة والعدوبة .

وحيد

لابن الرومي

تمهيد: «وحيد» تلك المغنية التي تلبست وجدان ابن الرومي «أبو الحسن» على ابن العباس بن جريح، ٣٢١ - ٣٨٣، ذلك الشاعر العبقرى الذى يمثل الغائص فى بحور الافكار ليستخرج أجمل الألىء وأحلاها وهو يغربل بحره ويصفي موجه فى مصنأة ذهن يدأب على الاستقصاء، فلا يترك المعنى إلا وقد استحوذ عليه من جميع أطرافه.

النص

يَا خَلِيلِي تَيْمَنِي وَحِيدٌ	فَقَوَادِي بِهَا مَعْنَى تَمِيدُ
عَادَةَ زَانَهَا مِنَ الْعُصْنِ قَدْ	وَمِنَ الطَّبِي مُقْلَتَانِ وَجِيدُ
وَزَهَاها مِنْ فَرْعِهَا وَمِنَ الْحَدِيثِ	ذَلِكَ السَّوَادُ وَالتَّوْرِيدُ
أَوْقَدَ الْحُسْنُ نَارَهُ فِي وَحِيدِ	فَوْقَ خَدِّ مَا شَانَهُ تَخْدِيدُ
خَاطِبَةٌ تَسْكُنُ الْقُلُوبَ وَتَرَعَاها	وَقَمْرِيَّةٌ لَهَا تَفْرِيدُ
وَعَرِيرٌ بِحُسْنِهَا قَالَ : صِفْهَا	قُلْتُ أَمْرَانِ : بَيْنَ وَشَدِيدُ
يَسْئَلُ الْقَوْلُ : أُنْهَى أَحْسَنَ الْأَشْيَاءِ	طَرًّا وَيَصْغَبُ التَّحْدِيدُ
تَتَجَلَّى لِلنَّاطِرِينَ إِلَيْهَا	فَشَقِيٌّ بِحُسْنِهَا وَسَمِيدُ
تَتَعَنَّى كَأَنَّهَا لَا تُعْنَى	مِنْ سُكُونِ الْأَوْصَالِ وَهِيَ تَجِيدُ
مَدَّ فِي شَأْوِ صَوْتِهَا نَفْسٌ كَافٍ	كَأَنْفَاسٍ عَاشِقِيهَا مَدِيدُ

فَقَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَعْيَا	مُسْتَلَدٌ بِسَيْطِهِ وَالنَّشِيدُ
فِيهِ وَشَىٰ وَفِيهِ حَلَىٰ مِنَ النَّعْمِ	مَصْرُوعٌ يَحْتَالُ فِيهِ الْقَصِيدُ
حُسْنُهَا فِي الْعُيُونِ حُسْنٌ جَدِيدٌ	فَلَهَا فِي الْقُلُوبِ حُبٌّ جَدِيدٌ
لِي حَيْثُ انصَرَفَتْ مِنْهَا رَفِيقٌ	مِنْ هَوَاهَا وَحَيْثُ حَلَّتْ قَصِيدٌ
عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَقُدَامِي	وَوَخَلِي فَأَيْنَ عَنْهُ أَحِيدٌ
سَدُّ شَيْطَانٍ حُبُّهَا كُلُّ فَجٍّ	إِنَّ شَيْطَانَ حُبِّهَا لِمُرِيدٌ
أَهَىٰ شَىٰ لَا تَسَامُ الْعَيْنُ مِنْهُ ؟	أَمْ لَهَا كُلَّ سَاعَةٍ تَجْدِيدٌ ؟
بَلْ هِيَ الْعَيْشُ لَا يَزَالُ مَتَى	اسْتَعْرَضَ يُبْلِي غَرَابًا وَيُعِيدُ
مَنْظَرٌ مَسْمُوعٌ مَعَانٍ مِنَ اللَّهِو	عِنَادٌ لِمَا يُحِبُّ عَنِيدٌ
مَا تَرَالَيْنَ نَظْرَةَ مِنْكَ مَوْتٌ لِي	مِيمَةٌ وَنَظْرَةٌ تَخْلِيدٌ
تَتَلَاقِي فَلِخِظَةِ مِنْكَ وَعَدُّ بَوْصَا	لِ وَاحِظَةٌ تَهْدِيدٌ

التعليق

هذه مغنية يصفها بتلك الاوصاف العربية القديمة المعروفة فهي عادة قدما غصن ومقلتاها كقلتي الطي وجيدها أيضاً ولكنه يبحث في نواحي تلك الصورة التقليدية لمضيف إليها أثر جمالها في وجدانه فالحسن أوقد ناره فيها وهي ظنبيه تسكن القلب فاجتمع في قلبه نار ان نارها ونار حبه لها .

إنها الجمال نفسه والجمال من الصعب أن يحدد مكان بيته هذا الذي جمع كل أفكار الفلاسفة الجمالين ابتداء من «هيجل» إلى «كانت» حيث يقول ابن الرومي :

يسهل القول أنها أحسن الأشياء . طراً ويصعب التحديد

وهو يصف صوتها وكأنه في رأينا قد سبق مدارس الرمز بين المعاصرين حيث
تبادل معطيات الحواس فالصوت فيه وشي ، والصوت في حلي من النغم وهي تغني
كانها لانغني كما يقول ابن الرومي معللاً أو مفسراً من «سكون الاوصال» كأنه أدرك
أيضاً المقولة الجمالية المحدثه التي ترى بأن الجمال سكون وليس حركة ثم يصف صوتها
في البساطة وامتداده وفي جميع أحواله بأنه نغم مستلذ كما يقول الأستاذ العقاد متحدثاً
عنه «فكانه قد بلغ في تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون الأنغام ألواناً
وزخارف وأوشية، تكاد تنطبع في صنعة الخيال أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها
في قرارة الوجدان» .

وحديث ابن الرومي عن حبه ولوحده، صورة تنغم أمامها كل صورة لعاطفة
الحب ، فقد يمل الانسان ما ألفه ويفقد كل شيء جدته إلا محبته يتجدد حسنها
دائماً فيتجدد حبه دائماً .

حسنها في العيون حسن جديد فلها في القلوب حب جديد

ويطارده حبه عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه وكما يقول «سد سلطان حبه
كل فحج ، ويحار ابن الرومي في تلك المغنية التي كلما رآها كلما أوقد الحب نيرانه في
وجدانه ويتساءل لماذا لا يمل كما يمل كل محب حبيبه

أهي شيء لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد

وتظل «وحيد ، أمله وأسه وجوده ومماته

ما تزالين نظرة منك موطن لي نيت ونظرة تخليد

يقول ابن خلكان عنه : «وهو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يفوص
عن المعاني النادرة ، فيخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى
حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية» .

أبو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي

تمهيد : «أبو تمام» حبيب بن أوس الطائي . ولد بالقرب من دمشق في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة ، ونشأ في هذه الحاضرة العلمية يرتاد حلقات العلم ، وندوات الأدب ، ثم تراه يهبط إلى مصر ، وينزل في القسطنطينية حيث مسجد عمرو بن العاص ، وهو آنذاك ملتحق العلماء ، ومنتدى الشعراء ، فيعترف من مناهل العلم ويساجل شعراء مصر ، ويفيد من ثقافتها ثم يعود إلى دمشق ، ويتحول إلى بغداد في عهد المعتصم الخليفة العباسي الكبير .

وفي بلاط هذا العاهل العظيم تقبل عليه الدنيا ، وبخالفه المجد ، فيصبح المقدم عنده يتغنى بأعماله ، ويتحدث بما أثر خلافته : مثل فتح عمورية ، والقضاء على ثورة « بابك الخرمي » ، وبعث المعتصم يأتي عهد ولده الواثق فيخص شاعر والده بمزيد من التقدير ، ثم أخذ أبو تمام ينقب في البلاد فيتهاداه وجهاء السياسة في العراق ، وفي خراسان .

وفي نهاية الثلث الأول من القرن الثالث الهجري انتقلت قيثاره الشعر من يد أبي تمام لتتناولها أجيال من بعده لا تزال حتى الآن تعزف على هذه الفيثارة بما تروى من شعره .

وترك لنا أبو تمام مختارات جمعها بنفسه في كتاب سماه « ديوان الحماسة » ، ويعد من أعظم مراجع الشعر في العصر الجاهلي و صدر الإسلام وبني أمية .

« محمد بن حميد الطوسي » ، قائد عربي ظهرت كفاءته القتالية في المعارك التي خاضت فيها الجيوش الإسلامية الحرب ضد « بابك الخرمي » ، الذي ادعى الألوهية وأفسد عقول الناس ، وقد شد أزره ملك أرمينية وامبراطور بيزنطة فقتل الرعب في نفوس المسلمين النازلين بين أذربيجان وإيران فتصدى له المعتصم وقائده وأحرزا انتصارات حاسمة ضد الجريمة بصفة عامة ، وبابك بصفة خاصة . وفي إحدى هذه المعارك سقط القائد شهيداً في سبيل الدفاع عن العرب والمسلمين .

فلا غرو إذا حزن عليه المسلمون ، وحزن المعتصم ، وقد عبر أبو تمام عن هذا الحزن العميق فقال :

النص

كَذًا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَيُفَدَحِ الْأَمْرُ^(١)

فليسَ لعمينِ لم يَفيضِ ماؤها عُذر

تُوفيتَ الأمالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأصبحَ في شُغلٍ عَن السَّفَرِ السُّفْرِ^(٢)

وما كانَ لإمالٍ من قَلِّ مالهَ وذُخرا لمن أَمسى وليسَ له ذُخْرُ

وما كانَ يَدْرِي مُجْتَدِي^(٣) جودَ كَفِّه

إِذَا ما اسْتَهَلَّتْ أَنه خُلِقَ العُسرُ

أَلَا في سَبِيلِ المُجْدِ مَنْ عَطَلَتْ لَهُ فُجْجاجُ^(٤) سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْفَرِ النَّفْرِ^(٥)

ففي كَلِمًا فاضتَ عيونُ قَبيلةٍ

دَما ضَحِكْتَ عَنْه الأَحاديثُ وَالذِّكْرُ^(٦)

فَتى دهرُهُ شَطْرانِ فيما يَنوبه في بِأسِهِ شَطْرُ وفي جودِهِ شَطْرُ^(٧)

فَتى ماتَ بينَ الطَّمَنِ وَالضَّرْبِ مَبِيَّةٌ تقومُ مَقامَ النُصْرِ إِذْ فاتَهُ النُصْرُ

(١) يفتح الأمر : يصعب .

(٢) السفر : المسافرون .

(٣) المجتدي : سائل العطاء ، استهلت : امتدت بالعضاء .

(٤) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع .

(٥) انشغل السفر : فتحت الحدود .

(٦) فاضت . . . دما : يريد هزمت ، ضحكت الأحاديث : ذكركه بانفخار

لأنه انتصر .

(٧) ينوبه : يلزم به ، بأسه : شجاعته وقوته .

وما ماتِ حتَّى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر^(٨)

وقد كان فَوْتُ الموتِ سهلاً فردهُ إليه الحِفاظُ المرءُ والخَلقُ الوعرُ^(٩)

ونفسٌ تخافُ المارَ حتَّى كأنما

هو الكُفْرُ يومَ الرَّوعِ^(١٠) أو دونه الكُفْرُ

فأثبت في مُسْتَنْقَعِ المَوْتِ رِجْلَهُ

وقالَ لها مِن تَعْتِ أُنْخَمُكَ^(١١) الحِشْرُ

غداً غُدُوَّةً^(١٢) والحمدُ نَسِجَ دائِهِ فلم يَنْصَرِفْ إلا وأَ كَفائِهِ الأَجْرُ

تَرَدَّى ثِيابَ المَوْتِ مُحْرَافاً دَجاً لها اللَّيْلُ الأَوْهَى من سُنْدَسِ خُضْرٍ^(١٣)

كَانَ بَنِي نَبهانَ يَوْمَ وفاتِهِ نُجُومُ سماءِ خَرٍّ من بَيْنِها البِذْرُ^(١٤)

يَمزُونُ عَن نارٍ مُعزَّى بِهِ العَلا

وَيَبسِي عَلَيْهِ البِاسُ والجودُ والشَمْرُ^(١٥)

(٨) اعتلت : تشاقلت ، القنا السمر : الرماح .

(٩) الخلق الوعر : الشديد الأنفة .

(١٠) الروع : الحرب الشديدة .

(١١) أخصم القدم : أسفلها الذي لا يصيب الأرض .

(١٢) غدا غدوة : خرج أول النصار .

(١٣) تردى : لبس ، دجا : الليل ، أظلم ، سندس خضر : حرير

سنيج .

(١٤) بنى نيهان : قوم محمد بن حميد .

(١٥) نار : مقيم ، الباس : القوة .

وَأَنَّهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مَضَى إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى اسْتَشْهِدَا هُوَ وَالصَّبْرُ
فَتَى كَانَ عَذَابَ الرُّوحِ لَامِنَ غَضَاضَةٍ^(١٧)

وَلَكِنَّ كِبْرًا أَنْ يُقَالَ بِهِ كِبْرٌ
فَتَى سَلْبَتَهُ الْخَيْلُ وَهُوَ حَمَى لَهَا وَبِزَّتُهُ^(١٨) نَارُ الْحَرْبِ وَهُوَ لَهَا جَمْرٌ
وَقَدْ كَانَتْ الْبَيْضُ الْمَائِثِرُ فِي الْوَعَى يُوَاتِرُ، فَهِيَ الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ مُبْتَرٌ^(١٩)
أَمِنْ بَعْدِ طَى الْحَادِثَاتِ مُحَمَّدًا يَكُونُ لِأَنْوَابِ النَّدَى^(٢٠) أَبْدَانًا شَدِيدًا
إِذَا شَجَرَاتِ الْعُرْفِ^(٢١) جَذَّتْ أَصُولُهَا

فَفِي أَيْ فَرْعٍ يُوجَدُ الْوَقُّ النَّضْرُ
لَتَنْ أَبْيَضَ الدَّهْرُ الْخَيْونُ لَفَقْدِهِ لَمَهْدِي بِهِ يَمْنٌ يُحِبُّ لَهُ الدَّهْرُ .
سَقَى الْغَيْثَ أَرْضًا وَارَتْ الْأَرْضُ شَخْصَةً

وَلِإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ وَلَا قَطْرٌ^(٢٢)

وَكَيفَ احْتِمَالِي لِلغَيْوِثِ صَنِيعَةً بِاسْتِقَائِهَا قَبْرًا، وَفِي أَخْذِهِ الْبَعْرُ^(٢٣)

(١٦) أَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ : كَيْفَ يَصْبِرُونَ وَمَنْ أَيْنَ يَأْتِيهِمُ الصَّبْرُ .

(١٧) مِنْ غَضَاضَةٍ : مِنْ ذَلَّةٍ .

(١٨) بِزَّتُهُ : سَلْبَتُهُ .

(١٩) الْمَائِثِرُ : جَمْعُ مَائِثُورٍ ، وَهُوَ السَّيْفُ الْمَائِثُورُ الْقَدِيمُ الْمُسَوَّارُ ، الْوَعَى :

الْحَرْبُ ، يُوَاتِرُ : قَوَاطِعٌ ، بَتْرٌ جَمْعُ أَبْتَرٍ : وَهُوَ الْمَقْطُوعُ .

(٢٠) الْبَيْضُ : الْجُودُ وَالكَرْمُ .

(٢١) الْعُرْفُ : الْمَعْرُوفُ .

(٢٢) الْغَيْثُ : الْمَطَرُ ، وَارَتْ : أَخْفَتْ .

(٢٣) صَنِيعَةً : جَمِيلًا وَمَعْرُوفًا ، لَخْدَهُ : قَبْرَهُ .

مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْحَةٌ
غَدَاةَ نَوَى إِلَّا اشْتَهَتْ أَنَهَا قَبْرٌ (٢٤)
نَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كَانَ يَحْيَا بِهِ الثَّرَى
وَيَعْمُرُ صَرْفَ الدَّهْرِ نَائِلُهُ الْعُمْرُ (٢٥)
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَا فإِنِّي
رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمْرٌ (٢٦)

التعليق

— يمثل أبو تمام في هذه القصيدة حزن أمة العرب على قائد من قوادها، ومشاعره ومشاعر قبيلة نهبان على بطلها محمد بن حميد، لأنه يصور فداحة الخطب وجلال الخطر، وبطولات المعارك التي خاضها، ومصرعه المشرف في المعركة التي خلدت ذكره. لقد مات ميمته شريفة مشرفة، تقوم مقام النصر إن فاته النصر، ويعدد مكارمه وماثره كما يراها الشاعر، وكأ تراها القبيلة. وكأ يراها الناس جميعاً. ثم ينهى قصيده برجام الرحمة له.

— وفي مطلع القصيدة تهويل يليق بعظمة القائد المفقود، أمر فادح، وذ هول ينسى الناس آمالهم ومهام أمورهم.

يفاجئنا بذلك مفاجأة الخطب على النفس فتستشعر فداحة الفقد لأعن من تحب وتمقد به الأمل.

لقد كان «ابن حميد» قمة في الجود؛ فهو للفقير مال وغنى، ولذو الحاجة ذخيرة وجاء، ولطالبي معروفه فيض غامر، وعطاء جزيل.

— وفي مفتح القصيدة وختامها يلح أبو تمام على كرم القائد، وكان المتوقع أن يكون أكثر إلحاحاً على بطولاته، وهذا ما نتوقع من شاعر وفشى الشهيد القليل حقه من جلال البطولة أن يحدثنا كثيراً عن كرمه ومعرفه لأن هذه الصفة الأخيرة تمثل مركز الاهتمام ومحور الأمل لدى شاعر متكسب، لأنها بؤرة الاهتمام التي تتجمع

(٢٤) طاهر الأثواب : كناية عن العفاف ، اشتتهت : تمننت .
(٢٥) الثرى : التراب ، صرف الدهر : شدائده ، نائله العمر : عطاؤه الكثير .
(٢٦) ليس له عمر : يقصد أن عمره قصير .

فيها الانفعالات والاحاسيس، فهي المنطلق والمنتهى للعاطفة التي تربط الشاعر بالفقيد الشجاع الكريم .

— ويلجأ الشاعر في القصيدة إلى التكرار، والتكرار نوع من التقوية بالصوت والكلمة. وأنه ليتنون عند أبي تمام ولايسير على وتيرة واحدة، إنه يمثل الثناء والإشادة بالقائد الفقيد كما تلحظ في قوله :

ففي كلما قاضت عيون قبيالة دماً ضحكك عنه الأحاديث والذكر
ففي دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
ففي مات بين الطعن والضرب مية تقوم مقام النصر إن فاته النصر
إنه يكرر اللفظ، ويكرر المعنى، ويكرر في أول البيت وفي منتهاه وفي تكراره معاني الاعتزاز والاعتداد بهذا القائد .

على حين نجده يستغل التكرار ولكنه يخرج به إلى تمثيل الحسرة، وتأكيده الآسي ومن تماذج ذلك قوله :

وأنى لهم صبر عليه استشهد هو والصبر .

ففي كان عذب الروح . . .

ففي سلبته الخيل . . .

إن أبا تمام يعرض معاني مكررة سبقه إليها عديد من الشعراء غير أن لتكراره مذاقاً جديداً إذ يخرجها إخراجاً طريفاً يستغل فيه دقة فكره، وبدائع ملكاته . . .

— ونكاد نقرر أن كل بيت من أبيات القصيدة وحدة من وحدات التنميق، والزخرف، أنه ليس زخرفاً لفظياً لحسب . بل هو زخرف لفظي ومعنوي في آن واحد، إنه يروعنا بظاهرة كما يعجبنا بباطنه .

فالتكرار بإعادة الفعل أو المصدر أو الكلمة أمر شائع في القصيدة كلها :

و السفر السفر، مال من قل ماله، ذخر وذخر، شطران شطر و شطر، والنصر والنصر . . . وهكذا، ولكننا لانحرم من تكلمة للبعنى وإثراء للفكرة لإثراء يصل بها إلى المبالغة تارة كما في قوله :

ففي دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر

ولم الطرافة تارة أخرى كما في قوله :

« يعزون عن ثأو تعزى به العلا . . . »

« . . . ولكن كبراً أن يقال به كبر . »

— وفي القصيدة يكثر الجناس وشبه الجناس . . . وبهذا عرف أبو تمام
ومن قبله أستاذه « مسلم بن الوليد » ولكن هناك فرقاً واضحاً بين جناس أبي مسلم
وجناس أبي تمام أن هذا الأخير لا يسوق الجناس وحده كما يصنع أستاذه ، بل
يعرضه في ثوب مزركش من الخيالات والتصاوير كما يظهر في قوله :

ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويعمر صرف الدهر نائله الغمر

لأنجد الجناس الناقص وحده على طريقة أبي مسلم ، بل نجد بجواره أثواباً مزخرفة
من ألوان الخيال .

إن التكرار وشبه الجناس والمشاكله والطباق أكثر شيوعاً في هذه القصيدة
فلا يكاد يخلو منها بيت إلا لتذكر في سابقه أو لاحقته . وكل هذه الزخارف يمر
بعضها في أوعية بعض ، فإذا هي تتجلى في هيئات وشبهات جديدة .

وإذا تأملت تصوير أبي تمام تجده مصبوغاً بألوان براقة تجذب النظر وتشير
الفكر « فابن حميد » :

تردى ثياب الموت حمراً فسادجا لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وراح أبو تمام يخلع هذه الألوان الزاهية على شخصيات ذات صوت وحركة ،
لأنه التشخيص والتجسيم في شعرنا العربي ، وتلك فوارة هذه الظاهرة التي شاعت في
شعرنا المعاصر وظننا أنها من إبداع الغربيين .

فأبو تمام يتصور .. الآمال متوفاة ، خلق العسر ، وضحكت الأحاديث والذكر .
ومات مضرب السيف ، والعلا تعزى بموته ، ويبكى عليه البأس والوجود والشعر ،
ولهذا نقرر أن أبا تمام شاعر الألوان والظلال ، وشاعر التشخيص والتجسيم
والزخارف الموثقة ، ولكنها ليست الزخارف الشكلية بل هي أيضاً زخارف
الفكر والمنطق .

وبذلك يعد أبو تمام زعيم المجددين في عصره ، وسابق عصرنا بما أبدع من لمحات
فنية رائعة . (٥)

الحسن بن هانيء « أبو نواس »

من شعره

تمهيد: ولد أبو نواس حوالي سنة ١٣٦ هـ وتوفي حوالي سنة ١٩٦ هـ .

و أعمق شعراء زمانه حساً وأبرعهم فناً وأخصبهم خيالاً وأوفرهم حظاً من
الظرف والفكاهة . . . يمثل الثورة الأولى في الشعر العربي التي غيرت طريقته ، التي
كان يسلكها منذ امرئ القيس . . . ويمثل « روح عصره أدق تمثيل . . . بكل
فقايسه ومزاياه » (١) .

وإن كثيراً من الدارسين للأدب والمتذوقين له يستقبلون شعر أبي نواس بشيء
من الاستهانة أو الاستخفاف ، وقد لا يوجه لهؤلاء من اللوم قدر ما يوجه إلى
أبي نواس نفسه فهو المسئول عن هذا الانحراف الذي يشيع في خرياته ومجونيياته ،
ولكن له بجوار هذه الانحرافات نزعات صافية طاهرة تحملنا على التريث في الحكم
على هذا الشاعر .

لا بد أن يكون في الحسبان أن الحياة في عصره كانت تدافعاً على المتاع واللذة في
نهم وإسراف ، وأن الخلفاء أنفسهم لم يتورعوا عن الأخذ منها بنصيب .

وينبغي أن يكون في الحسبان أيضاً أنه نشأ يتيماً لم يجد الأب الذي يأويه ، ولم
تصدق أمه في الحنان والإشفاق عليه ، ولكنها انصرفت لتلتمس السكن في ظل رجل
يرعاها ويعادى ولدها سرراً وعلاوية ، فانقطعت صلته بالبيت الذي ولده فيه ، وذهب
ينعش من المتنديبات الجميل منها الذي يشيع فيه العلم والأدب واللغة وعلوم الشريعة
وغيره الجميل الذي يصحب بالأحداث والمراهقين الذين أعجبهم ظرفه وسحرهم جماله .

تنقل أبو نواس بين مجالس الشعر والأدب واللاهسو في الكوفة . والبصرة ،
وتوثقت علاقته بخلاف الأحمر ، راوية الشعر ، فسمع وحفظ الكثير منه ، ورحل
إلى البادية فنزل في بني أسد فسمع وشاهد .

(١) الأستاذ عزيز أباظة في مقدمة « ديوان أبي نواس » .

لقد أحب أبو نواس فتغزل : وانتجع كرام زمانه فمدح ورثي ، وغشى مجالس
اللهو فعبث ولها ، وشرب ووصف وهجا .

ويرجع أبو نواس إلى نسب فارسي فكان لذلك من الشعوبيين الغلاة .
وأخيراً سخا ضميره فزهّد وخاف واقتى . . .

وستقدم إليك باقات من أشعار أبي نواس ونترك لك الحكم عليها واستيحاء
ماتدل عليه من صفات الخلق وسمات الأدب ، ونزعات الروح :

١ - هام بأربعة هي :

أربعةٌ يحيى بها قلبٌ وروحٌ وبدنٌ
الماءُ والبستانُ والخبزُ وأوجهُ الحسن

وقال :

سألتُ أخى أبا عيسى وجبريلُ له عقلُ
فقلتُ : الخمرُ تعجبي ا فقال : كثيرها قتل
فقلتُ له : فقد رلى فقال : وقوله فصل :
وجدتُ طبائعَ الإنسا نِ أربعةً هي الأصلُ^(١)
فأربعةٌ لأربعةٍ لكلٍ طبيعةٍ رطلُ

٢ - في الجنة خمر :

هذه الممنوعُ منها وأنا المحتجُّ عنها
مالها تحرّمُ في الدنيا وفي الجنةٍ منها ا

(١) يشير الى العناصر الأربعة : الماء ، والنار ، والتراب ، والهواء .

٣ - سخريه من البكاء على الاطلال واستنائه بحد الخمر :

بكيته وما أبكى على دمن^(١) ففر وما من عشق فأبكى من الهجر
ولكن حديث جاءنا عن نبينا فذلك الذي أجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا فلما نهي عنها بكيت على الخمر
فأشربها صرفاً وأعلم أنني أعزُّ فيها بالثمانين في ظهري

٤ - ولا يبكي على رسوم الديار ولكنه يبكي لتحريم العقار:

لقد جن من يبكي على رسم منزل ويندب أطلالاً عفرون بجزول^(٢)
فإن قيل ما يبكيك : قال : حمامة تنوح على قرخ بأصوات معول
ولكنني أبكي على الرياح ، إنها حرامٌ علينا في الكتاب المنزل
سأشربها صرفاً ، وإني حرمت فقد طالما واقعت غير محلل

٥ - يستعذ بالخمر من رمضان :

استعذ من رمضان بسلاقات الدنان
واطو شوالاً على القصد ف ، وتغريد الثيان^(٣)
وليسكن في كل يوم لك فيه سكرتان
من شوالنا علينا وحقيق بامتنان

(١) الدمن : آثار الديار .

(٢) جزول : الأرض ذات الحجارة .

(٣) الثيان : المغنيات .

جاء بالقصْفِ وبالعزِّ فِ ، وتخلِيع العنَّانِ
أوفَّقُ الأشهرَ لى أ: مدها من رمضان

٦ - الخمر خير من : الصلاة - والصيام - والزكاة - والحج - والجهاد :

قُلْ لِلْعَذُولِ بِحَانَةِ الْخَمَّارِ وَالشُّرْبِ عِنْدَ فَصَاحَةِ الْأَوْتَارِ
إلى قصدتُ إلى فقيهِ عالمٍ مُنتسِكٍ^(١) حَبِرٍ مِنَ الْأَحْبَارِ
مُتَمَعِّقٍ فِي دِينِهِ مُتَفَفِّهِ مُتَبَصِّرٍ فِي الْعِلْمِ وَالْأَخْبَارِ
قُلْتُ النَّبِيدُ تُحَلِّهِ : فَأَجَابَ لَا إِلَّا عُقَّارًا^(٢) يَرْتَمِي بِشَرَارِ
قُلْتُ : الصَّلَاةُ فَقَالَ : فَرَضٌ وَاجِبٌ صَلَّى الصَّلَاةَ وَبِتُ حَلِيفَ عُقَّارِ
أَجْمَعُ عَلَيْكَ صَلَاةَ حَوْلٍ كَامِلٍ مِنْ فَرَضِ لَيْلٍ فَاقْضِهِ بِنَهَارِ
قُلْتُ : الصِّيَامُ ؟ فَقَالَ لِي : لَا تَنْوِهِ وَاشْدُدْ عَرَى الْإِفْطَارِ بِالْإِفْطَارِ
قُلْتُ : الزَّكَاةُ ؟ فَقَالَ لِي شَيْءٌ يَعُدُّ لآلَةَ الشُّطَارِ
قُلْتُ : الْمَنَاسِكُ إِنْ حَجَّجْتَ ؟ فَقَالَ لِي

هَذَا الْفُضُولِ وَغَايَةُ الْإِدْبَارِ
لَا تَأْنِينٌ بِلَادَ مَكَّةَ مُحْرِمًا وَلَوْ أَنَّ مَكَّةَ عِنْدَ بَابِ الدَّارِ
قُلْتُ : الطُّفَاةُ ؟ فَقَالَ لِي : لَا تَنْزُوهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَرُّبُوا مِنَ الْأَنْبَارِ

(١) منتسك : متمعد ، حبر : عالم كبير .

(٢) العقار : الخمر .

٧ - وشرب حتى حسب الديك حماراً :

نَشْرَبُ اللَّيْلَ إِلَى الصُّبْحِ صِفَارًا وَكِبَارًا
وَتُعْنِي مَا اشْتَهَيْنَا هُ مِنْ الشُّعْرِ جِهَارًا
اصْفَى حَى تَرَانِي أَحْسَبُ الدِّيكَ حِمَارًا

٨ - في عذاب الحب وتباريح الهوى قال :

عَجِبًا لِي كَيْفَ أَبَقِي وَلَقَدْ ائْتَحَنْتُ^(١) عِشْقًا
لَمْ يُقَاسِ النَّاسُ دَاءَ كَالْهَوَى يَبْلَى وَيَبْقَى
أَيَّ شَيْءٍ بَعْدَ أَنْ الدَّمَّ حَ فِيهِ لَيْسَ يَرْقَأُ^(٢)
لَيْتَ شِعْرِي هَكَذَاكَ نَ أَخِي عُرْوَةَ^(٣) يَلْقَى
وَيْكَ إِنْ الْحَبُّ لَمْ يَمَ لِمَكِّ سَوَى رِقَى رِقَاً
لِي مَوْلَى أَرْتَحَى مِنْهُ هَ يَعْطَى رَغْمِكَ عَمَقَاً
قَمَرٌ بَيْنَ نَجُومٍ نَاصِبٌ فِي الصَّدْرِ حَقَاً^(٤)

٩ - أحب وأخلص في حبه وحاول إخفائه فلم يستطع فقال : لا بأس من الحب :

دُمُوعِي مَزَجَتْ كَالْبَسِي وَمَا أَظْهَرْتُ وَسْوَاسِي

(١) ائتحنت : أوهنت وغلبت .

(٢) يرقأ : يجف وينتهي .

(٣) عروة : عروة بن حزام ، قتلته الحب .

(٤) حقا : يقصد النهيد .

ولكن نطقت عيني فنمت عن هوى القاصي
وقالوا في بالظن فنكست لهم رأسي
ومن يسلم يا حبي (م) من السنة الناس
وهبني بحث بالحب فهل في الحب من باس

١٠ - الدنيا عنده : حب وشرب وطرب :

إنما همي غزا ل وصهباء كالذهب
إنما العيش يا أخي حب خشف من العرب
فإذا ما جمته فهو الدين والحسب
ثم إن كان مطربا فهو العيش والأدب
كل من قال غير ذا فاصفوه فقد كذب

١١ - هذه محبوبته . . وهذا هو الحب كما يراه . . إنه زورق الهلاك :

أيام من أخلف الوعدا وقد حال عن العهد
ومن أفرط في الهجرا ن ، والإغراض والصد
ويا من لا أميه ولا أسراره أبدى
ويا أطيّب من مسك وبأ ألين من زبد
ويا من قلبه أفسى لنا من حجر صلا

وَمَنْ لَوْ كَانَ فِي الطَّيِّبِ لَكَانَ الْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ
وَمَنْ لَوْ كَانَ فِي الرَّيْحَانِ مَا كَانَ سِوَى الْوَرْدِ
تَرَانِي دَافِعًا مَا عَشْتُ مَتَّ فِي زَوْزَقِكَ الْمُرْدِيِّ^(١)

١٣ - وفي يوم الحساب يرى أن الله أجل من أن يحاسبه :

مَا أَنَا مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِذَا تُودِي بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ
ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْلُ عَنْ خَطَرِي فَمَا لِمَثَلِي هُنَاكَ مِنْ أَمَلِ
هُنْتُ عَلَى الْخَالِقِ الْجَلِيلِ فَمَا يَنْظُرُ فِي قِسْمِي وَلَا عَمَلِي

١٣ - وهذا رأيه في الخطايا والذنوب والحساب :

تَكَثَّرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ قَاصِدٌ رَبًّا غَفُورًا
سَيَقْضِي ذَلِكَ مِنْكَ إِلَى نَعِيمٍ وَتَلْقَى مَا جِدَّا صَمَدًا شَكُورًا
تَعْصُ نَدَامَةً كَقَفْنِكَ مِمَّا تَرَكَتَ تَخَافَةَ النَّارِ الشُّرُورًا

١٤ - ثم يرجع إلى الله فيرى أن الله المدبر ، ويرجو صفحه وغفرانه :

يَا نَوَاسِي تَوَقَّرْ وَتَجَمَّلْ وَتَصَبَّرْ
سَاءَكَ الدَّهْرُ بِشَيْءٍ وَبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرُ
يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفْوِ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ
أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ عَنْ أَصْغَرِ عَفْوِ اللَّهِ أَصْغَرُ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا قَضَى اللَّهُ وَقَدَّرَ
لَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ تَدْيِيرٌ رَبِّ اللَّهِ الْمُدَبِّرِ

(١) المردي : نيك .

١٥ - وأخيراً يرى عدالة الله ، ويستمتع لندائه ، ويستجلى نعمائه في الكون ، ثم يقول بعد أن حج بيت الله .

إِلَهِنَا مَا أَعْدَدَكَ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ

لِيَّبِكَ قَدْ كَبَيْتُ لَكَ

لِيَّبِكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ وَالْمَلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ

مَا خَاب عَبْدٌ سَأَلَكَ أَنْتَ لَهُ حَيْثُ مَلَكَ

لَوْلَاكَ يَا رَبُّ هَلَكَ

لِيَّبِكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ وَالْمَلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ

كُلُّ نَبِيٍّ وَمَمْلُوكٍ وَكُلُّ مَنْ أَهْلٌ لَكَ

وَكُلُّ عَبْدٍ سَأَلَكَ سَبَّحَ أَوْ لَبَّى فَلَكَ

لِيَّبِكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ وَالْمَلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ

وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَمَلَكَ وَالسَّابِحَاتُ فِي الْفَلَكَ

عَلَى مَجَارِي الْمُنَسَّلِكَ

لِيَّبِكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ وَالْمَلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ

اعْمَلْ وَبَادِرْ أَجَلَكَ وَاخْتِمْ بِخَيْرِ عَمَلِكَ

لِيَّبِكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ وَالْمَلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ (٥)

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الكتاب
٥	العصر الجاهلي
١٢	طريق السيادة وأشرف لدى الأصمغ العدواني
١٤	في الفخر للمرقش الأكبر
١٦	في المدح للنايفة الديقاني
٢١	من معلقة عمرو بن كلثوم
٢٧	من أشعار لقيط بن يعمر
٣٢	في الفخر لطرفة بن العبد
٣٥	زفرة والد لابن زبيعة الثقفي
٣٧	العصر الاسلامي
٥١	من سورة لقمان
٥٨	من سورة الأحزاب
٦٥	من سورة الحج
٦٧	خطبة أبي حمزة الثمالي
٧٠	كعب بن زهير يمدح الرسول
٧٨	شجاعة لقطري بن الفجاعة
٧٩	من صور الوفاء الأخرى لثمام بن نويرة
٨٣	من صور الشهامة العربية للمقعن الكندي
٨٦	من أشعار مالك بن الربيب النميمي
٩٢	حول النقائض
٩٣	النقيضة الأولى للفرزدق
٩٥	النقيضة الثانية لجرير
٩٩	العصر العباسي الأول
١٠٧	وصف صديق لابن المقفع
١١٢	نشأة طفلين لهاشمي
١١٨	رسالة التربيع والتدوير للجاحظ
١٢٩	من حكم الكلام لابن عبد القدوس
١٣٢	مقدمة مديح لمسلم بن الوليد
١٤٠	في مدح المتوكل للبحترى
١٤٤	من قصيدة البحتري في ايوان كسرى
١٤٩	وحيد لابن الرومي
١٥٢	أبو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي
١٥٩	أبو نواس
١٦٠	نماذج من شعر أبي نواس

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٦٧ لسنة ١٩٧٥

709

10700